منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت

(دراسة موضوعية قرآنية)

بقلم
د. عبد الرحمن محمد على عويس
أستاذ التفسير المساعد بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر - بالقاهرة

مدخل:

إن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان بالله -سبحانه- وتعالى فلقد عرف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الإيمان فقال: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ[(١)]

من هنا فإن شرط الإيمان الصحيح أن يؤمن العبد بأركان الإيمان جميعاً، وأن يصدق بها كلها، فإن من كفر بركن منها فقد كفر بها جميعاً، حيث يقول الحق -سبحانه-:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وإذا كان الإيمان يعتمد على قضايا غيبية، فإن الإيمان باليوم الآخر على رأس هذه الغيبيات فكل ما يتصل بيوم القيامة من عالم الغيب، بداية من لحظة الغرغرة، ومرورا بالموت والبعث والحساب، ونهاية باستقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

وإذا كان الحق -سبحانه- لم يخلق عباده عبثاً ولن يتركهم سدى حيث يقول -سبحانه-: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة:٣٦-٤٠].

فكانت عقيدة المؤمن في اليوم الآخر هي التي تثبت له بأنه لم يُخلق عبثاً ولن يترك سدى، وإنما مرده في نهاية الأمر إلى ربه -سبحانه- وتعالى ليجزيه عما قدمت يداه إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً. ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

من هنا كان الإيمان باليوم الآخر أحدى الركائز التي تجعل لحياة الإنسان هدفاً يسعى إلى تحقيقه، وغاية يصبو إلى الوصول إليها، ألا وهي أن يرضى عنه المولى -

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم ٩.

سبحانه- وتعالى، وأن يدخله جناته في الدار الآخرة، وأن ينجيه من النار ومن عذابها وأهوالها.

ولذلك يعتبر الإيمان باليوم الآخر صمام أمان في حياة البشر يردع النفس البشرية عن كثير من أهوائها ويحول بينها وبين الكثير من نزواتها ورغباتها وشهواتها.

وعلى الرغم من أن اليوم الآخر من عالم الغيب لما تأت أحداثه ومواقفه بعد، وعلى الرغم من أن الساعة في علم الغيب، على الرغم ذلك كله فإننا نرى القرآن يحرص حرصا شديداً على بيان أحداث هذا اليوم ووصف مواقفه وبيان ما يجرى فيه ليكون عند البشرية صورة واضحة لأحداث يوم القيامة، ويكون لديهم وصفا مفصلا لمواقفه.

فهذا الوصف يكبح جماح أنفسهم، ويردعهم عن الكثير من تصرفاتهم المشينة.

وعلاوة على ذلك يكون عرض القرآن لأحداث ومشاهد ومواقف يوم القيامة بمثابة حجة من الله تعالى على عباده كي لا تبقى بعد ذلك حجة لأحد على الله -سبحانه- وتعالى حيث يقول الحق -سبحانه-: {رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء:١٦٥].

وإذا كانت موجات الإلحاد قديماً وحديثاً تعمل على فرض تصوراتها المادية على عقول الناس وقلوبهم ولذلك تراهم لا يصدقون بالبعث ولا يؤمنون بالحشر فهي بالنسبة لهم خرافات لم يتمكنوا من اكتشاف أسرارها في معاملهم أو إجراء تجارب عليها في مختبراتهم أو معاهد أبحاثهم إذا كان هذا حال هؤلاء القوم فإن الحق -سبحانه- قد ساق بين أيدينا من البراهين والأدلة والآيات البينات التي تؤكد وتثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن البعث حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

ومن هذا المنطلق كانت كتابة هذا البحث ليكون بمثابة تذكرة للمسلمين في زمن طغت فيه النزعة المادية على سلوكيات الكثيرين وتبصرة للمؤمنين في زمن الفتن التي تكاثرت على الناس في هذا العصر ونعوذ بالله -سبحانه- من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن وإن أراد بقوم فتنة أن يقبضنا إليه غير خزايا ولا مفتونين.

وليكون خطاباً لهؤلاء الملحدين الجاحدين للبعث والكافرين بيوم الحشر أن يتأملوا ويتدبروا في أنفسهم وفي ملكوت السماوات والأرض، وأن ينظروا فيمن حولهم من ملكوت الله وفي خلقه نظرة إنصاف، بأعين قد ارتفعت عنها غشاوتها وقلوب قد

تخلت عن كبرها وعنادها وآذان مصغية إلى صوت نداء الحق إنهم لو فعلوا ذلك لهداهم هذا إلى الإيمان وأيقنوا بأن الساعة حق وأن الله يبعث من في القبور.

وقد راعيت في هذا البحث أن يكون اعتماده على النصوص الصريحة من كتاب الله تعالى، وعلى ما ثبت من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان عملي في كثير من الأحايين ينصب في الدرجة الأولى على التنسيق بين هذه النصوص، ووضع كل نص في موضعه المناسب له من البحث.

وكفاني عرض القرآن لهذه المواقف خاصة وأن الأمر هنا يتعلق بأمور من عالم الغيب لا مجال فيها للاجتهاد أو عمل أو إعمال الفكر.

المقدمة وتحتوي على عدة مباحث:

المبحث الأول: أ–أهداف هذه الدراسة.ب–أهمية دراسة هذا الموضوع:

أ–أهداف هذه الدراسة.

- بيان منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت.
- العمل على تزكية النفس وتقويم سلوكها حتى تحقق الهدف الذي خلقها الله من أجله على أفضل صورة.
- بيان مكانة اليوم الآخر ومترلته وقدرة في معتقدات هذه الأمة التي آمنت بالله –سبحانه– وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ب–أهمية دراسة هذا الموضوع:

على الرغم من أن قضية البعث تناولها الكثيرون بالكتابة والدراسة والتحليل من نواحي كثيرة، على الرغم من ذلك فما تزال الحاجة ملحة لدراسة هذا الموضوع والكتابة عنه وذلك لأسباب كثيرة منها:

أولاً–الإيمان بالبعث ركن من أركان الإيمان لا يكتمل إيمان المرء إلا به **ويتضح ذلك من خلال النظر والتأمل في القرآن والسنة والإجماع.**

١ – القرآن: إذا كان هدف المؤمنين في حياتهم طاعة رهم ومرضاة خالقهم ولن يتم ذلك إلا إذا تحققت أركان الإيمان في حياتهم فكانت عقيدة يوقنون بها، وغاية يحيون من أجله، وهدفاً يعملون على تحصيله والوصول إليه، وحينما نتأمل في أركان الإيمان نجد بأن البعث أحد هذه الأركان فعن أبي هريرة ﷺ: كان النبي ﷺ بارزا يوما للناس، فأتاه رجل فقال: (ما الإيمان؟، قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث...)[1].

ولمكانة هذا الركن كانت عناية القرآن به من نواحي شتى فهو أحد أركان الإيمان التي تذكر بها آيات القرآن المؤمنين بحد أدنى في اليوم والليلة سبع عشرة مرة وهو يفتتح صلواته بأم الكتاب وفيها تلك الآية الجامعة {مالك يوم الدين}وما فيها من تذكرة بيوم الجزاء والحساب والملك فيه لله الواحد القهار.

وبعد سورة الفاتحة تفتتح سورة البقرة آياتها ببيان صفات المتقين فنرى من بين صفات المتقين إيمان المؤمنين باليوم الآخر ليس مجرد إيمان، وإنما هو إيمان وصل في

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه جـ١ ١٩٤.

درجته إلى درجة اليقين {الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون} [البقرة ٣، ٤].

وبينت آيات القرآن بأن الإيمان بالبعث شرط من شروط النجاة والفوز لكل الأمم والجماعات منذ بداية الخلق وإلى قيام الساعة حيث يقول سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة:٦٢].

وحينما ظن الكثير من الناس بأن البر عبارة عن مظاهر وشكليات صوبت لهم آيات القرآن هذا الظن الخاطيء وبينت لهم بأن البر عبارة عن عقيدة وعمل وتضحية وجهاد وعلى رأسها الإيمان بالله وباليوم الآخر: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ... ١٧٧} [البقرة] إلى غير ذلك من الآيات ولا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم من بضع آيات تتكلم عن عالم الآخرة، حتى أنه قيل: إن عدد الآيات التي أخبرت عن المعاد على نحو التصريح أو التلويح، قد بلغ أكثر من ألف آية.

وكان الإخبار القرآني عن اليوم الآخر وما يتصل به قد جاء على مستويات مختلفة، فقد ساق الأدلة والبراهين المختلفة على إمكان المعاد وضرورته ووجوبه كأصل من أصول الاعتقاد الثابتة في جميع الشرائع السماوية، وردّ على شبهات المنكرين، وأخبر عن أشراط الساعة والبعث بعد الموت والمحشر والحساب والصراط، ووصف حال المؤمنين في الجنة وما أُعدّ لهم فيها من النعيم الدائم، وحال المجرمين في جهنم وما أُعدّ لهم فيها من العذاب الأبدي.

وبالإضافة إلى ذلك فإن آيات القرآن قد أكدت من جانب آخر أن من كفر بالبعث وأنكر وقوعه فقد كفر حتى ولو ادعى الإيمان بالله سبحانه وحده حيث يقول الحق سبحانه: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١٣٦)} [النساء].

ـ أضف إلى ذلك حرص آيات القرآن على التأكيد على أن وجود اليوم الآخر، وكونه أمراً محتوماً لا ريب فيه، ووعداً حقاً لا يقبل التخلّف، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[آل عمران:٩]. قال تعالى:

﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾[النساء:٨٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٣٨]. وقال تعالى:﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣].

ــ بيّنت آيات القرآن الكريم أنّ من أهمّ وظائف أنبياء الله جميعاً عليهم السلام هي إنذار الناس بالبعث والحساب في اليوم الآخر، فقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ منكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾[الأنعام: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا قَالُوا بَلَى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[الزمر: ٧١].

والإنذار هنا عام لا يقتصر على أُمّة دون أخرى.

ــ تأكيد آيات الكتاب الكريم على أن عقيدة المعاد والبعث تعتبر ركناً أصيلاً في الشرائع السماوية السابقة للإسلام، فقال سبحانه في ذكر خطاب نوح عليه السلام لقومه وكان فيه: ﴿وَاللهُ أَنبَتَكُم مِنَ الأرض نَبَاتاً. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ [نوح: ١٧ ــ ١٨]. وقال تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدَىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام:١٥٤]. وقال تعالى حكاية عن تنديد موسى عليه السلام بفرعون وملئه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[غافر: ٢٧].

وقال سبحانه مذكّراً عيسى عليه السلام بيوم القيامة:﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[آل عمران:٥٥].

٢- السنة المباركة:

ولتأكيد أهمية اليوم الآخر والبعث نرى الأحاديث النبوية قد أسهبت في وصف العالم الآخر، وما فيه من الحشر والحساب والنعيم والعذاب، وعلى نفس المستويات

المذكورة في القرآن الكريم، بل بتفصيل أكثر وتوضيح أوفر، وسنقتصر في هذا المقام على ذكر بعض الأحاديث الدالّة على وجوب المعاد وضرورته وحتميته.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « يا بني عبد المطلب، إن الرائد لا يكذب أهله، والذي بعثني بالحق لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون، وما بعد الموت دارٌ إلاّ جنّة أو نار، وخَلْقُ جميع الخلق وبعثهم على الله عز وجلّ كخلق نفس واحدة وبعثها، قال الله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[1] ».

٣- الإجماع

إن الاعتقاد باليوم الآخر ممّا أجمع عليه المسلمون كافة بلا مخالف في ذلك، وجميعهم يعتبرون الإيمان باليوم الآخر من ضرورات الدين التي يجب الاعتقاد بها، ومن أنكرها فهو خارج عن عداد المسلمين، وما يردّده المسلمون كلّ يوم في صلواتهم: ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ هو تعبير عن إيمانهم بوجود الحياة بعد الموت، وكون ذلك محلّ وفاق عند الجميع.

وقد اتفقت الشرائع والأديان على وجود الحياة بعد الموت، وإنما وقع الاختلاف في كيفية الإعادة بعد الموت، وقد ذكرنا الأقوال في المعنى الاصطلاحي للمعاد، وليس غرضنا هنا تحقيق تلك الأقوال وبيان المختار منها، وإنما المهمّ التأكيد على أصل الفكرة، وهي عودة الإنسان كيفما اتفق إلى حياة ثانية، يحاسب فيها ويُجزى بأعماله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، وذلك محلّ وفاق عند الجميع، لأنه ممكن عقلاً وواقع حتماً بنصّ القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية[1].

ولذا كانت قضية الإيمان باليوم الآخر إحدى القضايا الكلية التي عالجها القرآن المكي المنزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قبل هجرته، وذلك أن القوم كانوا قوماً كفاراً، وكانوا قوماً ماديين لا يؤمنون إلا بما تدركه حواسهم، أو تصل إليه مشاعرهم وأحاسيسهم، حيث يقول قائلهم: إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما قال عنهم الحق سبحانه في محكم كتابه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[الجاثية-٢٤].

ثانياً: لا قيمة للحياة بلا اعتقاد بالبعث

(١) موقع http://www.rafed.net/books/aqaed/al-maad/index.html.

– إن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر يعيش في هذه الدنيا كالحيوان، لا يدري ما الحكمة التي من أجلها خلق، فالحياة الدنيا تفقد معناها بدون الإيمان باليوم الآخر، وتصبح حلقة مبتوتة عن الماضي والمستقبل. ولقد اصطدم أحد الفلاسفة الوجوديين المعاصرين بهذه الحقيقة، فقرر أن الحياة عبث وأن انتظار المزيد منها حماقة، لأن استمرار الحياة ليس إلا مجرد فرصة لتبادل الإساءات مع الآخرين، فمن أراد أن يجنب نفسه أو أحبابه شر نفسه وشر غيره فليبادر بالتخلص من حياته وحياة أحبابه.وتطبيقاً لذلك، فما إن رأى زوجته في سعادة، حتى تقدم إليها ليمنع عنها أي شقاء قادم فذبحها، ثم سلم نفسه للشرطة. ورفعت الشرطة أمره إلى أن وصل إلى رئيس الجمهورية- يوم ذاك – الذي قال: عار على فرنسا أن تعتقل عقلها!! ولكن أودعوه مستشفى المجانين!! ليجعل له بذلك مخرجاً من أن تناله طائلة القضاء.

-لا يخفى أن إرسال الأنبياء يُعدّ من الضرورات التي تفرضها حاجة الإنسان إلى الهداية والصلاح، بما ينسجم مع الحكمة الإلهية التي قضاها الله تعالى في خَلْقه، ولا يمكن إقامة أسس تلك الهداية ما لم تقترن بقوّة تنفيذية فاعلة تحمل الإنسان على الانصياع لها، وتُخرج التعاليم الإلهية والأحكام السماوية من حيّز النظرية إلى واقع الممارسة، فتقود الإنسان إلى ساحل الرشاد، دون أدنى تجاوزٍ منه أو مخالفة، وبدون تلك القوّة ستبقى تلك التعاليم والأحكام مجرّد مواعظ، ليس لها معنى في واقع الحياة، ولا أدنى تأثير في سلوك الإنسان.

وإذا تصوّرنا أن العوامل الخارجية المتمثّلة بقوانين العقوبات الوضعية ــ وما فيها من السجن والإعدام والإبعاد وغيرها ــ قادرة على كبح جماح النفس الإنسانية وصيرورتها باتجاه تطبيق أسس الصلاح والهداية، فإن الواقع يشير إلى فشل تلك العوامل في اجتثاث جذور الشرّ والفساد وضمان السعادة والكمال والأمن، سواء على صعيد الفرد أو المجتمع.

ذلك لأنّ تلك القوانين إذا كانت قد نجحت في ردع المجرمين والأشرار من الرعية، بإنزال أقصى العقوبات بهم، فإنّها قد أفلست في الحدّ من انحرافات أصحاب القرار السياسي، وأصبحت قاصرة أمام المتسلّطين الذين يتلاعبون بمقدّرات الشعوب، ويبتزّون أموالهم ويغتصبون حقوقهم تحت غطاء قانوني مصطنع يوفّر لهم الحماية والأمان.

ثم إنّ العوامل الخارجية المؤثرة في سلوك الفرد، بما فيها من قوانين العقوبات التي تواضعت عليها أنظمة الحكم في أغلب الدول، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقوة الدولة وهيبة سلطتها الحاكمة وسلامة أدواتها التنفيذية، وحينما تفقد الدولة تلك القوة والهيبة، ويستشري الفساد في أوصالها، فلا قيمة لتلك القوانين، وليس لها أدنى هيبة أو احترام.

وإذا افترضنا نجاح القوانين الوضعية في ردع المجرمين من الرعية والحاكمين، مع وجود القانون الذي يضمن استمرار قوة الدولة وفاعلية مؤسساتها التنفيذية، فإنّ في جنبات الإنسان منطقة فراغ لا تطالها مراقبة السلطة، ولا تصلها سلطة القانون، ومن تلك المنطقة تحدث الجرائم والانحرافات الشاذة، بعيداً عن الأضواء الكاشفة، بسبب شهوات النفس الأمّارة وما يعدها الشيطان من الغرور ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء:٦٠]. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾[الإسراء: ٥٣].

وإذا قيل: بأن الملحد قد يكون فاضلاً قويماً، فإن فضيلته ظاهرية، لا ترتكن على أصول نفسية، فضيلة أوجدها الحياء من المعاشرين، أو التقية من سلطة القوانين، ولو غاب الرقيب وخلا له الجو، فإنه لا يتورّع عن هتك ستر أو سلب مال أو اقتراف محرّم ؛ لأن الشهوة إذا امتلكت ناصية النفس، قادتها إلى كلّ رذيلة، وركبت كلّ دنيئة، فأنّى تكون الفضيلة لمن يعتقد أنه حيوان فان؟

وعليه فإنّ القوانين التي تسنّها الدول، وحتى في أكثر دول العالم مدنيةً وتقدماً، قد أثبتت فشلها الذريع في توجيه سلوك الفرد، وتنظيم حياته، وبلوغ أهدافه الإنسانية والروحية، على أسس ثابتة وقويمة، تستوعب حركة الفرد في المجتمع وتصرفاته وأعماله الظاهرية والباطنية، وترشده إلى الصلاح والسعادة في دنياه وآخرته.

وممّا تقدمّ يتبيّن أن العوامل الداخلية الكامنة في أعماق نفس الإنسان، والنابعة من صميم وجدانه وضميره، هي القوة الوحيدة التي تحكم سلوكه وتصرفاته، وتلازمه في حلّه وترحاله وسرّه وعلنه، وذلك لما للروح من قدرة ذاتية على كبح جماح صاحبها، لأنها من عالمٍ علوي، فتنزع بفطرتها إلى الكمال والسمو، ولكن قلّما يصل الإنسان إلى أن يجعل لروحه سلطاناً على جسده، لأن هذا الأمر يحتاج إلى رياضة روحية قاسية لا تسهل إلاّ لمن يعتقد بخلود النفس، وهذا الاعتقاد يخلق في أعماق النفس الإنسانية حافزاً يدعو إلى عمل الفضائل والخيرات، رجاءً في ثواب الآخرة، ووازعاً يحدّ من الأهواء والشهوات، ويردع عن ارتكاب المعاصي والسيئات، خوفاً ورهبةً من عقاب الآخرة.

ذلك لأنّ الضمير الإنساني وحده قد يؤنّب صاحبه على سيئة فعلها، لكنّه لا يعذّبه، وقد يعاتبه على منكرٍ اقترفه، لكنّه لا يعاقبه، وقد يكون ناصحاً وواعظاً، لكنّه قد لا يكون موجّهاً، لأنه لا يملك نفعاً ولا ضراً إزاء أهواء النفس وجموحها في عالم الضلال والغواية، وكثيراً ما تغالبه فيكفّ ويعتزل، وعندها يفعل الإنسان ما يشاء تحت جنح الظلام بعيداً عن أعين الناس.

فإذا كانت القوانين الرسمية والأعراف الاجتماعية وازعاً يردع الإنسان من الخارج، والضمير الإنساني وازعاً يردعه من الداخل، فيضبطان سلوكه وتصرفه إلى قدرٍ معين، فإنّ الإيمان بالله والاعتقاد باليوم الآخر يجمع بين الاثنين ويفوقهما، لأنه يغرس في النفوس أسس التربية الأخلاقية القائمة على الشعور بوجود الرقيب على القول والعمل، ولا يستطيع المؤمن التهرّب من ذلك الرقيب في جميع أحواله، لأنه محيط بكلّ شيء، وأقرب إليه من حبل الوريد، ويعلم السرّ وأخفى، وإنه سيحاسبه عن كلّ كبيرة وصغيرة فعلها، ولا يعزب عنه مثقال ذرّة، ولهذا يبقى المؤمن شاعراً بالمسؤولية، خائفاً من عقاب الله وعذابه، حتى لو سوّلت له نفسه الاختفاء عن الأنظار بجريرته، وأمن من عقوبة القانون وسلطته، إذ لا مفرّ من حكم الله وسلطانه.

روي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه جاءه رجل، وقال: أنا رجل عاصٍ ولا أصبر عن المعصية، فعظني بموعظة. فقال عليه السلام: « افعل خمسة أشياء وأذنب ما شئت، فأول ذلك: لا تأكل رزق الله، واذنب ما شئت. والثاني: اخرج من ولاية الله، واذنب ما شئت. والثالث: اطلب موضعاً لا يراك فيه الله، واذنب ما شئت. والرابع: إذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك، واذنب ما شئت. والخامس: إذا أدخلك مالك في النار فلا تدخل النار، واذنب ما شئت».

فالمؤمن يعتقد أن كلّ شيء تابع لسلطان الله تعالى وملكه، وداخل تحت ولايته، وأنه تعالى يرى كلّ أفعال المرء وحركاته وسكناته، وما يجيش به صدره ويخطر على قلبه، وأن تلك الأفعال هي الوحيدة التي سترافقه بعد الموت إلى يوم الحساب، وتكون المقياس للثواب والعقاب، وليس ثمة شيء غيرها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:(يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ)(١)*

---

(١) بخاري: كتاب رقاق، حديث رقم ٦٠٣٣.

- من لا يؤمن بالله واليوم الآخر لا يركز همه إلا على هذه الحياة الدنيا وما يحقق فيها من مصالح ومنافع شخصية، فهو يبذل كل جهوده ليصارع الناس على ما في أيديهم ليفوز من هذه الدنيا بأعلى نصيب قبل أن يأتيه الموت، فيحرمه من لذائذه. فتجده يسعى في تحقيق أهدافه ولا يبالي أن يكون ذلك بغش أو خداع أو سلب أموال وظلم واستباحة دماء، أو هتك أعراض واحتيال ونفاق، لا يخاف عقاب ربه ولا يخاف إلا أن يقع تحت طائلة القانون وعقاب المسؤولين من البشر، فإذا أمن جانبهم، وأحكم الخطة لمغالطتهم، انطلق كالحيوان المفترس، لا يقف عند حد، فالإنسان بدون إيمان باليوم الآخر وحش مفترس لأن همه الدنيا وليس له منها إلا اللذائذ الشخصية والمصالح الدنيوية. ويأتي ذكر الموت ليشعل نار الشهوات والأطماع في نفسه وقلبه فيبالغ في تعجيل شهواته ومطامعه بأي وسيلة إجرامية قبل أن يدركه الموت.

أما المؤمن باليوم الآخر، فيعرف أن حياته الدنيا مقدمة لحياته في الآخرة التي ينتقل إليها بالموت، وأن عليه أن يعمل الصالحات، ويجتنب السيئات حتى يفوز برضا ربه، ويدخل الجنة ذات النعيم المقيم الخالد، وحتى ينجو من النار وهو يؤمن بأن الله لن يضيع عمله الصالح بل سيجزيه به الجنة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا* أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٣٠-٣١].

وذكر المؤمن للموت يزيده صفاءً ونقاءً ويجعله يقدم لآخرته، ويجعله يعبد ربه ويتخلق بأخلاق الإسلام. ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فتراه صادق الحديث وفياً بالعهد، حافظاً للأمانة، يسعى إلى الخير، ويقاوم الشر، لا يغش ولا يخدع، ولا يسرق ولا يقتل ولا يزني، ولا يغتاب. إنه الإنسان السوي المستقيم. أما ما نشاهده اليوم من رذائل قد تفشت بين المسلمين فسبب ذلك ضعف في إيمانهم باليوم الآخر[1].

من هنا كان لابد من معالجة هذه القضية في هذه الفترة خاصة، وذلك لأنها إحدى الركائز التي يقوم عليها صرح الإيمان ويرتفع عليها بناؤه، قبل معالجة أية قضايا أخرى.

ثالثاً: عودة الحياة في كثير من المجتمعات إلى صور من الجاهلية الأولى.

---

(١) موقع: http://aliman.org/imbook/im٥htm. على شبكة المعلومات الدولية.

بالإضافة إلى ما سبق يؤكد على أهمية البحث في هذا الموضوع عودة الحياة في كثير من المجتمعات إلى صور من الجاهلية الأولى.ومرد ذلك إلى هيمنة الحضارة الغربية بترعتها المادية على كثير من بقاع الأرض، والتي يحاول منظروها أن يجعلوا من مبادئها ونظمها وأنماط حياتها، منهجاً يسير عليه العالم بأسره، والخطورة هنا أن أنماط حياة هذه الحضارة تقوم على الإغراق في الجوانب المادية في الحياة، وعلى التمادي في إشباع شهوات النفس بلا ضابط أو رابط، وأن تكون الحياة الدنيا هي الغاية، وإذا ما تم هذا وكان الإغراق في الترف والمتع والشهوات غاية للأفراد والأسر والمجتمعات انقلبت الموازين وانعكست المقاييس فنسي هؤلاء الحكم الإلهية والإرادات الربانية، وجحدوا صراحة البعث والحشر والحساب، ولقد صورت آيات القرآن هذا الوضع أبلغ تصوير وانظر إلى تلك الآيات وهي تبين ذلك:{أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤)}[الجاثية]

وصاحب الجنتين اغتر بما أنعم الله به عليه، فكان ترفه وغناه وكثرة أمواله وثماره سبباً في جحوده باليوم الآخر وإنكار وقوعه {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً (٣٦}[الكهف].

وكما قال تعالى: {ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى فلننبأن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ} (فصلت ٥٠) وقال تعالى: {وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يَحْمُوم لا بارد ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مُتْرَفين وكانوا يُصِرّون على الحنث العظيم وكانوا يقولون أإذ متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون} (الواقعة ٤١- ٤٨).

وقال تعالى عن مترفي الأمم السالفة عندما توالت عليهم نعم الله فاغتروا بها فكانت مدعاة للتكذيب برسل الله وبالبعث بعد الموت قال تعالى: {وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما

توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين} (المؤمنون ٣٣- ٣٨).

ولذلك فإن من رحمة الله بعباده المؤمنين أنه سبحانه في محكم كتابه عالج هذا الجانب في النفس البشرية معالجة الحكيم الخبير خالق النفس والعالم بكل ما يصلحها وما يفسدها، وما ينفعها ويضرها، فبداية لم يغفل الجانب المادي من الحياة ولم ينكره أو يقبحه ويقذره، وفي مقابل ذلك لم يجعله هدفاً للحياة أو غاية الوجود على وجه الأرض ونكتفي في هذه العجالة بتلك الآيات الجامعة التي تعالج ذلك حيث يقول الحق سبحانه {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)}[آل عمران].

رابعاً: كثرة الفتن ومن آثارها غياب أحداث اليوم الآخر عن حياة الناس في هذا العصر.

لقد غابت حقيقة الآخرة عن شعور الكثير من الناس في هذا العصر ومرد ذلك لأسباب كثيرة منها:

بالإضافة إلى ما ذكرناه من قبل فإن كثرة هذه الفتن قد جعلت الكثير من الناس في شغل شاغل فلقد امتلأت عقولهم وقلوبهم بأمور كثيرة بعضها له ارتباط بأموالهم وصفقاتهم ومشاريعهم الاقتصادية والتنموية، بعضها له اتصال بوسائل لهوهم ولعبهم وما استحدث فيها من أساليب للهو واللعب تجعل من اللهو غاية في حد ذاتها لها مؤسساتها وروادها وميزانيتها التي قد تعدل ميزانيات دول بأكملها، وبعضها له اتصال بإدارة جولات الصراع السياسي بين الأمم والحضارات

في وسط هذا الزحام الشديد الذي استحوذ على الأفكار والمشاعر، واستنفذ الوقت والجهد غابت عقيدة بل وثقافة اليوم الآخر وأحداثه ووقائعه عن أرض الواقع وعن دنيا الناس فما عاد له ذكر إلا نادراً، وما عاد لها تأثير على سلوكيات الكثير، فلقد امتلأت حياتهم بكل غثاء، وعقولهم وقلوبهم بالتافه من الأمور، كل هذا يحتم على الغيورين على دين الله أن يعملوا جاهدين على أن يعيدوا إلى أرض الواقع عقيدة الإيمان

بالبعث يعرف الناس وقائعها ويتفاعلوا مع أحداثها كما رسمتها لهم آيات القرآن وهي تصورها لهم وتخبرهم بها وكأنها يوم مشهود وليس يوم في علم الغيب مكنون.

خامساً: الحاجة إلى تجديد الخطاب عن اليوم البعث والآخر.

مما لا شك فيه أن الحديث عن اليوم الآخر والبعث موغل في القدم من اللحظة التي هبط فيها آدم ومن قبله الشيطان إلى الأرض{قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)}[الأعراف]. فهبط آدم وهو على يقين من ذلك وتوالت الحضارات على وجه الأرض وقضية البعث تأخذ مساحة عريضة من تفكير كل أمة، ومن ذاكرتها وتعتبر ركناً من عقيدتها التي توقن بها حتى كانت آخر الرسالات رسالة الإسلام فكانت قضية البعث ركناً من أركان هذا الدين له أهميته ومكانته فكان بيان القرآن له على النحو الذي بيناه من قبل وعلى مدار تاريخ الإسلام كتب عنه الكثيرون ولكن مع ذلك ما تزال الحاجة ملحة للكتابة عنه فكل عصر وزمن له أسلوبه في الكتابة وطريقته في التعبير وقد لا تستوعب الأجيال المعاصرة أساليب السابقين في الكتابة عن اليوم الآخر فيحتاج الأمر دائماً إلى الكتابة عنه بأسلوب وبطريقة في التعبير وبعبارات ومفردات تفهمها وتستوعبها تلك الأجيال، التي لم يكن لديها من وسائل العلم والمعرفة ما لدى السابقين فاحتاج الأمر إلى تجديد الخطاب لمثل هذه الأجيال.

المبحث الثاني: -تعريف البعث والمعاد:

قال ابن فارس: (الباء والعين والثاء) أصل واحد، وهو الإثارة[١]. وقال الراغب: هو إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بَعثْتُه فانبعث.ويختلف البعث بحسب اختلاف ما عُلّق به، قال ﷻ: {والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون} (الأنعام ٣٦). وقال ﷻ: {يوم يبعثهم الله جميعا...} (المجادلة ٦). وقال تعالى: {زعم الذين كفروا أن لن يُبعثوا قل بلى وربي لتبعثن...} (التغابن ٧). أي: يخرجهم ويسيرهم إلى القيامة.

والبعث ضربان: إلهي وبشري- ويهمنا في هذا الموضوع هو البعث الإلهي- والبعث الإلهي ضربان: أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن لَيس، وذلك يختص به الباري تعالى و لم يقدر عليه أحد.

---

[٢٠] معجم مقاييس اللغة لابن فارس [illegible] (٣٩٥) [illegible] ١٩٢/١.

والثاني: إحياء الموتى وقد خـــص بذلك بعض أوليائه كعيسى عليه السلام وأمثاله. ومنه قـــوله تعالى: {فهذا يوم البعث} (الروم ٥٦). يعني يوم الحشر، وقال تعالى: {ثم بعـــثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا} (الكهف ١٢). وذلك إثارة بلا توجيه إلى مكان [1].

وفي معنى البعث: النُّشْر، يقال: نَشرَ الميت نُشُورا، قال تعالى: {وإليه النشور} (الملك ١٥).وقال تعالى: {بل كانوا لا يرجون نشورا} (الفرقان ٤٠) وقال تعالى: {إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين} (الدخان ٣٥) إلا أنه مستعار من نشر الثوب والصحيفة، قال تعالى: {وإذا الصحف نشرت} (التكوير ١٠).[2]

فالإيمان بالبعث إذاً هو: التصديق الجازم الحتمي بانتهاء الحياة الدنيا بكاملها، والإحياء بعد الموت والخروج من القبور وقيام الناس لرب العالمين صغـــيرهم وكبيرهم بعد النفخة الثانية للحساب والجزاء [3].

وفي معناه المعاد كذلك وهو في اللغة(٤): كلّ شيء إليه المصير والمآل، وهو مصدر عاد إليه يعود عَوْداً وعودةً ومعاداً، أي: رجع وصار إليه، قال تعالى: (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)(١). ويتعدّى بنفسه وبالهمزة، فيقال: عاد الشيءَ عَوْداً وعِياداً: انتابه وبدأه ثانياً، وأعدتُ الشيء: رددته ثانياً، أو أرجعته، وأعاد الكلام: كرّره، قال تعالى: (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخرِجُكُمْ إِخرَاجاً)[نوح: ١٨].

والمبدئ المعيد: من صفات الله تعالى، لأنّ الله سبحانه بدأ الخلق إحياءً، ثمّ يميتهم، ثم يعيدهم إلى الحياة يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧].

المعاد في الاصطلاح: هو الوجود الثاني للأجسام وإعادتها بعد موتها وتفرّقها.

وعرّف أيضاً بأنه الرجوع إلى الوجود بعد الفناء، أو رجوع أجزاء البدن إلى الاجتماع بعد التفرّق، وإلى الحياة بعد الموت، ورجوع الأرواح إلى الأبدان بعد المفارقة(٥).

١[٢١] مفردات ألفاظ القـــرآن للراغب الأصفـــهاني (١٣٢) وانظر للمعجم الوســـيط لإبراهيم أنيس ورفاقه (٦٢).

٢[٢٢] مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني (٨٠٥) ومعجم مقاييس اللغة (ن ش ر)

٣[٢٣] انظر شعب الإيمان للبيهقي جـــ١/٢٣٩.

(٤) لسان العرب لابن منظور (عود) ٣/٣١٥.

(٥) موقع http://www.rafed.net/books/aqaed/al-maad/index.html.

المبحث الثالث: -آثار الاعتقاد بالبعث على سلوك البشر في الحياة الدنيا.

قبل أن نبين الآثار المترتبة على الاعتقاد بالمعاد، لا بدّ من الإشارة إلى أن الله سبحانه لم يفرض علينا الاعتقاد باليوم الآخر، وما فيه من الدقة في الحساب وظهور نتائج الأعمال، كوسيلة من وسائل الردع عن الشرّ والفساد في الدنيا والترغيب في عمل الخير والرشاد، وحسب، بل أوجبه تعالى لأنه حقيقة ثابتة لها وجود واقعي، ولأنّ الإيمان بالمعاد إيمان بالأمر الواقع، وتسليم بالقضاء الحتم الذي لا بدّ منه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣].

أمّا ما يترتب على الإيمان بالمعاد، من الوقوف عند حدود الشريعة وامتثال أحكامها وتطبيق مقرراتها ـــ وما يتبع ذلك من آثار تعود في صالح الفرد والمجتمع، سواء في إطار تهذيب الأخلاق وتقويم السلوك، أو في إطار تنمية النوازع النفسية الخيّرة، وضمان عروجها في سُلّم الفضيلة والكمال ـــ فهي فرع لذلك الأصل، وثمرة من ثمراته الطيبة، والتي ترسم لنا بمجموعها صورة من صور الحكمة الإلهية في فرض أصول الاعتقاد وتشريع الأحكام، وما لذلك من آثار تعود في صالح الفرد، وتضمن مصالحه وسعادته في الدارين، وتسهم في تنظيم الحياة الإنسانية بأبهى صورها، وفي ما يلي نذكر أهمّ تلك الآثار:

أولاً: أثر المعاد في إطار السلوك

لا يخفى أن إرسال الأنبياء يُعدّ من الضرورات التي تفرضها حاجة الإنسان إلى الهداية والصلاح، بما ينسجم مع الحكمة الإلهية التي قضاها الله تعالى في خَلْقه، ولا يمكن إقامة أسس تلك الهداية ما لم تقترن بقوّة تنفيذية فاعلة تحمل الإنسان على الانصياع لها، وتُخرج التعاليم الإلهية والأحكام السماوية من حيّز النظرية إلى واقع الممارسة، فتقود الإنسان إلى ساحل الرشاد، دون أدنى تجاوزٍ منه أو مخالفة، وبدون تلك القوّة ستبقى تلك التعاليم والأحكام مجرّد مواعظ، ليس لها معنى في واقع الحياة، ولا أدنى تأثير في سلوك الإنسان.

وإذا تصوّرنا أن العوامل الخارجية المتمثّلة بقوانين العقوبات الوضعية ـــ وما فيها من السجن والإعدام والإبعاد وغيرها ـــ قادرة على كبح جماح النفس الإنسانية وصيرورتها باتجاه تطبيق أسس الصلاح والهداية، فإن الواقع يشير إلى فشل تلك العوامل

في اجتثاث جذور الشرّ والفساد وضمان السعادة والكمال والأمن، سواء على صعيد الفرد أو المجتمع.

ذلك لأنّ تلك القوانين إذا كانت قد نجحت في ردع المجرمين والأشرار من الرعية، بإنزال أقصى العقوبات بهم، فإنّها قد أفلست في الحدّ من انحرافات أصحاب القرار السياسي، وأصبحت قاصرة أمام المتسلّطين الذين يتلاعبون بمقدّرات الشعوب، ويبتزّون أموالهم ويغتصبون حقوقهم تحت غطاء قانوني مصطنع يوفّر لهم الحماية والأمان.

ثم إنّ العوامل الخارجية المؤثرة في سلوك الفرد، بما فيها من قوانين العقوبات التي تواضعت عليها أنظمة الحكم في أغلب الدول، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقوة الدولة وهيبة سلطتها الحاكمة وسلامة أدواتها التنفيذية، وحينما تفقد الدولة تلك القوة والهيبة، ويستشري الفساد في أوصالها، فلا قيمة لتلك القوانين، وليس لها أدنى هيبة أو احترام.

وإذا افترضنا نجاح القوانين الوضعية في ردع المجرمين من الرعية والحاكمين، مع وجود القانون الذي يضمن استمرار قوة الدولة وفاعلية مؤسساتها التنفيذية، فإنّ في جنبات الإنسان منطقة فراغ لا تطالها مراقبة السلطة، ولا تصلها سلطة القانون، ومن تلك المنطقة تحدث الجرائم والانحرافات الشاذة، بعيداً عن الأضواء الكاشفة، بسبب شهوات النفس الأمّارة وما يعدها الشيطان من الغرور ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء:٦٠]. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإنسانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾[الإسراء: ٥٣].

وإذا قيل: بأن الملحد قد يكون فاضلاً قويماً، فإن فضيلته ظاهرية، لا ترتكن على أصول نفسية، فضيلة أوجدها الحياء من المعاشرين، أو التقية من سلطة القوانين، ولو غاب الرقيب وخلا له الجو، فإنه لا يتورّع عن هتك سترٍ أو سلب مالٍ أو اقتراف محرّم ؛ لأن الشهوة إذا امتلكت ناصية النفس، قادتها إلى كلّ رذيلة، وركبت كلّ دنيئة، فأنّى تكون الفضيلة لمن يعتقد أنه حيوان فان؟

وعليه فإنّ القوانين التي تسنّها الدول، وحتى في أكثر دول العالم مدنيةً وتقدماً، قد أثبتت فشلها الذريع في توجيه سلوك الفرد، وتنظيم حياته، وبلوغ أهدافه الإنسانية والروحية، على أسس ثابتة وقويمة، تستوعب حركة الفرد في المجتمع وتصرفاته وأعماله الظاهرية والباطنية، وترشده إلى الصلاح والسعادة في دنياه وآخرته.

وممّا تقدمّ يتبيّن أن العوامل الداخلية الكامنة في أعماق نفس الإنسان، والنابعة من صميم وجدانه وضميره، هي القوة الوحيدة التي تحكم سلوكه وتصرفاته، وتلازمه في حلّه وترحاله وسرّه وعلنه، وذلك لما للروح من قدرة ذاتية على كبح جماح صاحبها، لأنها من عالمٍ علوي، فتترع بفطرتها إلى الكمال والسمو، ولكن قلّما يصل الإنسان إلى أن يجعل لروحه سلطاناً على جسده، لأن هذا الأمر يحتاج إلى رياضة روحية قاسية لا تسهل إلاّ لمن يعتقد بخلود النفس، وهذا الاعتقاد يخلق في أعماق النفس الإنسانية حافزاً يدعو إلى عمل الفضائل والخيرات، رجاءً في ثواب الآخرة، ووازعاً يحدّ من الأهواء والشهوات، ويردع عن ارتكاب المعاصي والسيئات، خوفاً ورهبةً من عقاب الآخرة.

ذلك لأنّ الضمير الإنساني وحده قد يؤنّب صاحبه على سيئة فعلها، لكنّه لا يعذّبه، وقد يعاتبه على منكرٍ اقترفه، لكنّه لا يعاقبه، وقد يكون ناصحاً وواعظاً، لكنّه قد لا يكون موجّهاً، لأنه لا يملك نفعاً ولا ضراً إزاء أهواء النفس وجموحها في عالم الضلال والغواية، وكثيراً ما تغالبه فيكفّ ويعتزل، وعندها يفعل الإنسان ما يشاء تحت جنح الظلام بعيداً عن أعين الناس.

فإذا كانت القوانين الرسمية والأعراف الاجتماعية وازعاً يردع الإنسان من الخارج، والضمير الإنساني وازعاً يردعه من الداخل، فيضبطان سلوكه وتصرفه إلى قدرٍ معين، فإنّ الإيمان بالله والاعتقاد باليوم الآخر يجمع بين الاثنين ويفوقهما، لأنه يغرس في النفوس أسس التربية الأخلاقية القائمة على الشعور بوجود الرقيب على القول والعمل، ولا يستطيع المؤمن التهرّب من ذلك الرقيب في جميع أحواله، لأنه محيط بكلّ شيء، وأقرب إليه من حبل الوريد، ويعلم السرّ وأخفى، وإنه سيحاسبه عن كلّ كبيرةٍ وصغيرة فعلها، ولا يعزب عنه مثقال ذرّة، ولهذا يبقى المؤمن شاعراً بالمسؤولية، خائفاً من عقاب الله وعذابه، حتى لو سوّلت له نفسه الاختفاء عن الأنظار بجريرته، وأمن من عقوبة القانون وسلطته، إذ لا مفرّ من حكم الله وسلطانه.

روي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه جاءه رجل، وقال: أنا رجل عاصٍ ولا أصبر عن المعصية، فعظني بموعظة. فقال عليه السلام: « افعل خمسة أشياء وأذنب ما شئت، فأول ذلك: لا تأكل رزقَ الله، واذنب ما شئت. والثاني: اخرج من ولاية الله، واذنب ما شئت. والثالث: اطلب موضعاً لا يراك فيه الله، واذنب ما شئت. والرابع: إذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك، واذنب ما شئت. والخامس: إذا أدخلك مالك في النار فلا تدخل النار، واذنب ما شئت».

فالمؤمن يعتقد أن كلّ شيء تابع لسلطان الله تعالى وملكه، وداخل تحت ولايته، وأنه تعالى يرى كلّ أفعال المرء وحركاته وسكناته، وما يجيش به صدره ويخطر على قلبه، وأن تلك الأفعال هي الوحيدة التي سترافقه بعد الموت إلى يوم الحساب، وتكون المقياس للثواب والعقاب، وليس ثمة شيء غيرها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:(يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ)(١)*

ثانياً: أثر المعاد في إطار النفس

إنّ الاعتقاد بالله وباليوم الآخر يعتبر من أمضى أسلحة الإعداد والحصانة، ذلك لأنه يمنح النفس الإنسانية قوّة الصمود أمام الرغبات النفسية والمظاهر الخدّاعة في هذا العالم، ويكسبها حصانة تقيها من الجنوح إلى أهوائها وتفطمها عن إتيان شهواتها، ذلك لأن أغلب من لا يؤمن بالمعاد ويعتقد أنه إذا مات تحلّل جسده وختمت حياته، لا تكون له شكيمة تردّه عن الهوى وتصدّه عن الغيّ، ولا يكون له وازع يزجره عن الباطل ويصرفه عن إتيان القبيح.

أمّا المؤمن باليوم الآخر فإنّه يعتبر الحياة الدنيا مدرسة إعداد ووسيلة لاكتساب المعرفة والفضيلة للوصول إلى الكمال والحقّ والعيش في عالم الخلود والبقاء الأبدي والسعادة السرمدية، وذلك من خلال تتريه النفس عن ارتكاب الخطايا، وترويضها على معاني الفضيلة والعدالة، ومجاهدتها عن الاستسلام لرغباتها المضادّة للشرع والعقل، والعروج بها إلى سلّم الكمال الإنساني والاطمئنان الروحي ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي* وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧].

وتلك القيم لا ينشدها الإنسان إلاّ ليقينه بمعاد يثاب فيه على إحسانه ويعاقب على إساءته، فهو يسيطر على نفسه بقوة عقيدته التي غرست في نفسه حبّ الفضيلة ومكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، ومنحته المناعة الكافية عن ارتكاب الخطايا والذنوب، لما تخلّفه من ندامة وحسرة ومسؤولية كبرى في يوم الحساب.

ثمّ إن الاعتقاد بالمعاد ليس رادعاً عن إتيان القبائح وغشيان الخسائس وحسب، بل إنه مُطمأنّ النفس وسَكَن الخواطر ومعتصم الاندفاعات، وبه تمتدّ أشعة الأماني إلى ما لا نهاية، ولا تقف الآمال إلاّ عند غاية الحق والكمال، حيث يصبح الإنسان فاضلاً، لا لأنه يخاف العذاب أو يرجو الثواب، بل لأنه يجد لذة الفضيلة أكبر من لذّة الرذيلة،

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق، حديث رقم ٦٠٣٣.

ويعبد الله تعالى لا بدافع الرهبة أو الرغبة، بل لأنه يرى الله تعالى أهلاً للعبادة، وتلك عبادة الأحرار المخلصين والكرام المؤمنين.

أمّا الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يرجون لقاء الله، فقد رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وركنوا إليها، فاستولت عليهم الرغبات، وامتلكتهم الأهواء، فاستعبدت ذواتهم، وحطّمت نفوسهم، فتراهم يلهثون وراء الحطام الدنيوي الزائل، لأنه وسيلتهم لتحصيل السعادة، وتحقيق سبيل الرفاه والعيش الرغيد والأماني والرغبات قبل الرحيل إلى عالم الموت، الذي يعني العدم والفناء في اعتقادهم.

ومن هنا تراهم يشعرون بالاضطراب وعدم الاستقرار، خشية من انتهاء الرزق قبل الموت، وعدم تحصيل أسباب السعادة والرفاه قبل الفوت، فينتابهم الهمّ والأسى لأدنى فشل في الحياة، وتشقى نفوسهم بالمتاعب الدنيوية التي لم يحصلوا على عوضٍ أو ربحٍ لقاءها، فتكون الدنيا في أعينهم سوداء قاتمة وعبثاً لا معنى له، وقد يلجأون إلى الانتحار فراراً من الواقع المؤلم، أنهم عميٌ لا يبصرون، أعمتهم الدنيا من أن يبصروا طريق الحق والخير والكمال.

وعلى عكس ذلك يعتقد المؤمن وبنفس مطمئنة أن السعادة لا تقتصر على هذه الحياة الدنيوية ومتاعها المحدود، وأن الذي عند الله سبحانه هو أكثر خيراً وأبقى أثراً ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠].

وذلك يمنحه الصمود أمام مصائب الحياة ومصاعبها وأحداثها المفجعة، فلا يستسلم للحوادث، ولا يقع فريسة للاضطراب والقلق والضياع، بل يوطّن نفسه على الصبر متذكّراً الموت وقيامه بين يدي الله تعالى رجاء السعادة الأبدية.

فالمعاد عقيدة ترمي إلى سعادة الإنسان وتوجيه ملكاته النفسية نحو الفضيلة والكمال، لأنّ الفوز بالدار الآخرة يتطلّب التحلّي بالفضائل والمكارم التي يكتسبها الإنسان، باعتدال نفسه وتوسّطها بين طرفي الإفراط والتفريط من كلّ قوة غضبية أو شهوانية، وسلوكه الطريق المؤدي إلى نيل الفضيلة وتجنب الرذيلة على اختلاف أنواعها، لما فيها من الذلّ والهوان في الحياة الدنيا، وما يترتّب عليها ممّا لا يحمد عقباه من الخزي وعذاب النار في الدار الآخرة، وبذلك تُهيّأ له الأرضية للسير في مدارج الكمال.

ومهما امتلك الإنسان المعاصر من تقنية متطوّرة وأدوات حضارية مكّنته من السيطرة على قوى الطبيعة المختلفة، إلاّ أنّها أثبتت فشلها من أن تمسك بزمام النفس الإنسانية، وأن تروّضها في طريق الكمال المطلوب، وعجزت بالتالي من أن تحول دون انتشار عوامل الانحراف والفساد والاضطراب والقلق التي اتسعت أمواجها وانتشرت آثارها في أكثر بلدان العالم المتطوّر مدنياً.

ومن هنا بقيت جميع الحلول المطروحة، من قبل الاتجاهات الوضعية، لرفع حالة الاضطرابات الروحية المتفشية في مجتمعات الدول المتطوّرة عقيمة وغير مثمرة، وبقي الإنسان هناك يعيش حالة من الضياع والخواء الفكري.

وبقيت عقيدة المعاد هي القوّة الوحيدة القادرة على تهذيب النفوس والحيلولة دون انحرافها، وهي الدرع الحصينة التي تحفظها من هجمات الأهواء وتصوغها صياغة رفيعة لتصل إلى السعادة المبتغاة، وهي الركن الأساس الذي يرسو عليه بناء النفس الفاضلة والمجتمع الفاضل(١).

هذا هو بعض ما يلزم المؤمن الاعتقاد به، ضمن دائرة الاعتقاد باليوم الآخر، وهو يخلق في أعماق نفسه الزهد في الدنيا، والورع عن محارم الله، ويجعله يتردّد كثيراً قبل ارتكاب المعصية، ويرتدع عنها بوازع ينبع من صميم نفسه المؤمنة بيوم الحساب، ومراقبة ضميره الموقن بوجود الرقيب على الأعمال، دون حاجة إلى مراقبة القانون وسلطته.

فالاعتقاد بالمعاد إذن أداة قويمة وفعّالة لتقويم السلوك الفردي، وتنعكس آثاره على الصعيد الاجتماعي أيضاً، ذلك لأنه يلزم المرء المسلم التمسّك بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وعدله، حيث تنتظم أمور الناس، ويحفظ لكلّ ذي حقّ حقّه، كما أنه يخلق في نفس الإنسان موجة قوية من الإحساس بالمسؤولية إزاء كلّ عملٍ من أعماله، ويذكي في روحه نزاهة تصدّه عن العدوان على حقوق الآخرين، وورعاً يجرّده عن الظلم والتجاوز عليهم، قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: « بئس الزاد إلى المعاد العدوانُ على العباد»(٢).

وقال أيضاً: « لا يؤمن بالمعاد من لا يتحرّج عن ظلم العباد ».ويقول:« والله لأن أبيت على حسك مُسهَداً، أو أُجرّ في الأغلال مُصفَداً، أحبّ إليّ من أن ألقى الله

---

(١)موقع http://www.rafed.net/books/aqaed/al-maad/index.html.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٥٠٧-الحكمة ٢٢١.

ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحُطام، وكيف أظلم أحداً لنفسٍ يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها؟! »(١).

والإسلام يؤكّد أن خير ما يحمله المرء إلى آخرته هو التقوى، وذلك يحول دون اتساع أمواج الفساد والخيانة، ويسهم في إرساء أسس الصلاح والاستقرار الاجتماعي.

والاعتقاد بالآخرة دافع لمراعاة حقوق الناس وإرساء قواعد التعامل الصحيح، القائم على الإنصاف والصدق والأمانة، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ* أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[المطففين: ١-٥].

والإسلام يؤكد أن الإنسان إذا انقطع عن الدنيا، فلا يتبعه بعد موته إلاّ ما يدلّ على العطاء المستمر من صالح الذرية، والسنّة الحسنة التي يعمل بها بعد موته، وأعمال الخير والإحسان.

وفي ذلك دعوة صريحة للإنسان المسلم لأن يفكّر في إقامة أسس الخير والصلاح في المجتمع، وتربية النشء الصالح حتى بعد انقطاعه عن الدنيا.

وعليه فإن الإيمان بالمعاد والحساب يوم القيامة، يعتبر من الأصول الاعتقادية ذات الأهمية البالغة في آثارها ونتائجها الواضحة، لتنظيم حياة المجتمع المسلم، وتوجيه سلوكه لبلوغ أهدافه الإنسانية والروحية على أسس قويمة، هي أرقى من كل التشريعات البشرية الهادفة إلى القضاء على الفوضى والفساد، وجرائم القتل والنهب، التي بلغت أوجها في أكثر بلدان العالم تقدّماً وتطوّراً وثقافةً.

ومن هنا اضطرّ كثير ممّن لا يؤمن بالدين ولا بالآخرة كواقع ديني، إلى أن يصرّحوا بأنه لا شيء غير عقيدة الآخرة يصلح لمراقبة الإنسان وإخضاعه لسلوك طريق الحق والعدل والانصاف في جميع الظروف، مثل « كانت » و"فولتير » وغيرهما (٢).

---

(١) نهج البلاغة. صبحي الصالح: ٣٤٦-الخطبة ٢٢٤

(٢) موقع http://www.rafed.net/books/aqaed/al-maad/index.html.

المبحث الرابع: -حكمة البعث

إن قضية الخلق والنشأة والاستخلاف في الأرض لو كان الأمر فيها قاصراً على هذه الحياة الدنيا كما هو ظن الماديين حيث يقول قائلهم:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤-٢٦].

لو اقتصرت الحياة على ذلك لكان خلق الناس عبثاً ووجودهم في الحياة الدنيا سدى وحاش لله سبحانه أن يخلق الناس عبثاً، أو أن يتركهم سدى حيث يقول سبحانه:

﴿أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ٤٠﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠]

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إلا هو رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[المؤمنون: ١١٥-١١٦].

إن قضية الخلق والاستخلاف في الأرض أعظم قدراً من تكون لمجرد أن يحيا الإنسان على وجه الأرض سنوات معدودات ثم إذا ما انتهت حياته انتهى أمره وانمحى ذكره وما عاد له وجود بعد ذلك أو أثر.

إن قضية خلقه أعظم من ذلك بكثير أعظم من يخلقه المولى سبحانه يحيا على وجه الأرض سنوات معدودات ثم يمضي في الغابرين إلى غير رجعة.

إننا حينما نتأمل نجد بأن الحق سبحانه قد خلق الإنسان ومن أجله خلق له كل ما في الكون وسخره لخدمته ومن أجله حيث يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٣-٣٥].

وفي سورة أخرى يقول سبحانه: ﴿خَلَقَ الإنسان من نُطْفَة فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ. هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ. وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ. أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ. وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ٤-١٨].

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٢].

إن عناية الحق سبحانه بهذا الإنسان أعظم من تكون لمجرد هذه الحياة الدنيا، ومن أجل أيامه المعدودة التي يعيشها فيها.

إذ لا يعقل بحال من الأحوال أن يسخر الحق سبحانه للإنسان الشمس والقمر والكواكب والنجوم وكل ما في هذا الملكوت لمجرد أنه سيحيى في هذه الدنيا سنوات معدودات ثم ينتهي أمره وينمحي ذكره ويكون نسياً منسياً، لا يعقل أن يكون الأمر هكذا مجرد سنوات معدودات، إذ لو كان الأمر هكذا لصدقت مقولة المشركين إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما قال الحق سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[الجاثية: ٢٤].

ولو كان هذا صحيحاً فما كان هناك من داع لكل هذه النعم التي أنعم الله بها على عباده، طالما أن حياتهم الدنيا هي كل شيء، وأن عمرهم المحدود فيها هو نهاية المطاف.

ولكن الحق سبحانه خلق الإنسان لهدف أسمى من ذلك، ولغاية أكبر من هذا، يقول الحق سبحانه موضحا الغاية من خلق الإنسان والهدف من وجوده قال عنها سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون. مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات ٥٦-٥٨].

وفي موضع آخر يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

لقد خلقه المولى سبحانه ليكون خليفة له في الأرض يعمرها ويستقر فيها، ويحقق فيها القدر الذي رسمه له المولى سبحانه، ثم بعد أن تنتهي به الحياة الدنيا لابد أن يكون هناك يوم آخر ليُسأل عن هذا الدور الذي قام به في حياته، وهل قام به كما ينبغي أو أنه قد قصر في أدائه وتنفيذه.

الفصل الأول تحت عنوان:(منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت)

تقديم: كيف عالج القرآن قضية البعث والإيمان باليوم الآخر؟ وكيف استطاع أن يخرج هذه البشرية الضالة من الظلمات التي تحيا فيها إلى نور الإيمان وضيائه، وكيف استطاع أن يرفع هذه الغشاوة عن أعينهم حتى يصدقوا ويؤمنوا بعالم الغيب هذا بعد ما كانوا لا يؤمنون إلا بما تدركه حواسهم وينظرون إليه بأعينهم والتي كانت عقيدتهم التي توارثوها جيلاً بعد جيل: إن هي إلا أرحام تدفع تبلع وما يهلكنا إلا الدهر.

لم يسلك القرآن مسلك المفكرين والفلاسفة في معالجتهم لمثل هذه القضايا التي لها صلة بما وراء عالم المادة وهي المعروفة بعلوم ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا لم يسلك القرآن مسلكهم حيث قامت معالجتهم على نظريات فلسفية لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تقنع عقلاً أو تهدى ضالاً أو تخلد الإيمان في قلب ملحد.

وإنما سلك القرآن في عرضه لهذه القضية والاستدلال عليها مسلكاً خاطب فيها النفس البشرية من جميع جوانبها.

فلقد خاطبت آيات القرآن العقل والعاطفة والمشاعر والوجدان، والقلب والفؤاد، وما ترك في ذلك سبيلاً إلا سلكه، حتى ما ترك لعاقل حجة في كفره وإلحاده بعد عرض القرآن لهذه الأدلة والبراهين.

فما هي الأدلة التي اعتمد عليها القرآن في إثبات حقيقة اليوم الآخر؟

إنها أدلة كثيرة وبراهين متنوعة جاء بها كتاب الله تعالى وحفلت بها آياته البينات، وخاطب بها كل نوعيات البشر خاطب العالم في معمله ومع أبحاثه، وخاطب بها الفيلسوف المعتكف في صومعته ومحرابه، بل خاطب بها المزارع البسيط في حقله ومزارعه، والمؤرخ والأديب والمفكر والأمي والمتعلم على حد سواء، وتنوعت هذه الأدلة والبراهين، وجاءت على النحو التالي:

من خلال النظر والتأمل في كتاب الله تعالى سنرى بأن قضية البعث بعد الموت قد تنوعت الأدلة وتعددت البراهين التي تؤكد وقوعه وتثبت حتمية مجيئه ويمكننا أن نقسمها إلى قسمين:

- أدلة عقلية تعتمد على مخاطبة العقل والقلب بما لا يدع مجالاً لعاقل يتخلى عن العناد والكبر والغرور ويدع جانباً موروثات ألفها وقضى دهراً من عمره معتقداً إياها وموقناً بصحتها، حينما ينحي ذلك كله جانباً ويصغي بعقل منصف وقلب خال عن الهوى فإنه حتماً سيوقن بأن البعث حق وأن الله يبعث من في القبور

- أدلة حسية مادية: أما الأدلة الحسية فهو أمور محسوسة ملموسة يراها الإنسان في نفسه ويشاهدها فيمن حوله ويحس بها إحساساً حقيقياً في ملكوت السماوات والأرض وكلها تبرهن وتثبت بأن الساعة حق وأن يوم القيامة لا ريب فيه ولكن قبل الحديث عن هذه الأدلة وتلكم البراهين لا بد لنا من وقفة مع بيان وتعريف المراد بالبعث:

القسم الأول:الأدلة العقلية

وهي كما ذكرنا آنفاً أدلة وبراهين تعتمد على مخاطبة العقل والقلب والوجدان حتى يوقن بأن البعث حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها ولقد تنوعت هذه الأدلة وجاءت على أساليب مختلفة وبيان ذلك في المباحث التالية:

المبحث الأول: التواتر:

التواتر كما قال السيد الجرجاني: هو الخبر الثابت على ألسنة قوم لا يتصور تواطؤهم على الكذب ١[٣٥] لاسيما إذا كان هذا التواتر ثابتا على ألسنة المعصومين الأنبياء والرسل فإنه لا سبيل إلى إنكاره وتكذيبه البتة، فإن من الأخبار ما لا يمكن

١[٣٥] التعريفات لعلي الجرجاني (٦٣).

ردها أو رفضها لثبوتها ثبوتا قطعيا ومنها الأخبار الثابتة ثبوتا قطعيا في أمر المعاد والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال.

قال ابن تيمية: أخبر الله عن جميع الأشقياء أن الرسل أنذرتهم باليوم الآخر كما قال تعالى: {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير} (الملك ٨) فأخبر أن الرسل أنذرتهم وأنهم كذبوا بالرسالة.

وقال تعالى: {وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمرا، حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا بلى} الآية (الزمر ٧١) فأخبر عن أهل النار أنهم قد جاءتهم الرسالة وأنذروا باليوم الآخر.

وقال تعالى: {ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله، إن ربك حكيم عليم، وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون، يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين} (الأعراف ١٢٨) فأخبر عن جميع الجن والإنس أن الرسل بلغتهم رسالة الله وهي آياته وأنهم انذروهم اليوم الآخر.

وكذلك قال: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه} (الكهف ١٠٣) فأخبر أنهم كفروا بآياته وهي رسالته وبلقائه وهو اليوم الآخر [٣٦]١

وقال تعالى عن نوح عليه السلام وهو يدعو قومه إلى الإيمان بالله تعالى و إلى معرفة أمر البعث: {والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا} (نوح ١٧، ١٨).

وقال عن عيسى عليه السلام وهو يقر بالبعث ليكون دليلا على وجوبه ووقوعه: {والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا} (مريم ٣٣).

١[٣٦] فتاوى ابن تيمية جـ٩/٣٠.

فكون جميع الأنبياء والرسل من لدن آدم ﷺ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ أخبروا بالبعث بعد الموت، وكون أممهم على مختلف أفرادها تلقت هذا النبأ العظيم من رسلها سواء آمنوا أو لم يؤمنوا وهذا التواتر القطعي الذي يعطي علما يقينيا بوجوب وجود البعث بعد الموت لم يترك مجالا للريب أو الشك في تحقيق وقوعه(١).

المبحث الثاني: صمام أمان للبشرية:

ولا تقتصر الأدلة والبراهين على قدرة الله على البعث على ذلك، وإنما بالإضافة إلى هذا فإن الحق سبحانه قد جعل من البعث صمام أمان لحياة البشرية التي لولاه لانفلت زمام الأمور في الحياة، وصارت أمور الناس فوضى، فلا رادع ولا زاجر، ولا مخوف للناس من البغي والظلم والعدوان طالما أن المجرم سيفلت بجريمته، وأن الفاجر لن يؤاخذ على فجوره، والظالم لن يعاقب على ظلمه وبغيه وعدوانه.

لقد جعل الله اليوم الآخر صمام أمان للبشرية يردع الظالمين عن ظلمهم، ويكف الفاجرين عن فجورهم، ويمنع الفاسقين والفاجرين من فسوقهم وعربدتهم وبغيهم وعدوانهم ولذلك يقول الله سبحانه:

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣]

لو لم يكن هناك يوم آخر لانفلت زمام البشرية وانقلبت الدنيا إلى غابة، وصار الناس فيها وحوشاً يأكل من يستطيع الأكل، ويظلم من يقدر على الظلم طالما أنه سيفلت بجريمته ولن يحاسب أو يعاقب عليها.

وللإيمان باليوم الآخر أثر عظيم في حياة الإنسان، و له أثر كبير في توجيه الإنسان و انضباطه و التزامه بالعمل الصالح و تقوى الله عز و جل. و ذلك لأن من يعتقد أنه سيحاسب على كل ما يفعله، و من آمن بأنه سيفوز بالجنة إذا أصلح العمل و سيعاقب بالنار إذا أساء، لا بد أن يحمله هذا الاعتقاد على أن يحسن العمل و يبتعد عن كل ما نهى عنه الله عز و جل و رسوله صلى الله عليه و سلم. و أما من لا يعتقد بأن هناك حساب و لا عقاب و لا ثواب فإنه سيكون منفلتا من أي ضابط سوى هواه و

---

(١) منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت صـ٣٩ منحة على الشبكة العنكبوتية

شهوته. و قد بين الله لنا هذا في العديد من الآيات في القرآن الكريم بالربط بين الإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح، كما قال عز و جل:

﴿أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم و لا يحض على طعام المسكين﴾ [الماعون: ١-٣].

وقال: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله و اليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾.[المجادلة: ٢٢].

وعَنْ عَبْد اللَّه بْنِ مَسْعُود قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: (اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ. قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّه.

قَالَ لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّه حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ) (١)*.

المبحث الثالث: وجود التكليف يقتضي وجود المعاد:

من المعلوم أن الله تعالى جعل الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء للإنسان، ووهبه النوازع الخيّرة إلى جانب النوازع الشريرة، لتتمّ بذلك حقيقة الابتلاء، وأعطاه العقل الذي يميّز بين الخير والشر، وبعث له الأنبياء والرسل ليحدّدوا له طريق الخير وطريق الشرّ، ثم كلّفه باتباع سبيل الخير والحق، وتجنّب سبيل الشرّ والباطل، وأعطاه الإرادة والاختيار ليستحقّ الثواب أو العقاب، قال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٣]

وقال سبحانه: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾[الأعراف: ١٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء: ٣٥].

وعليه فإن واقع الحياة الدنيا بما يحمل من متناقضات الراحة والعناء، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والإقبال على الأشرار والإدبار عن الأخيار، هو امتحان وابتلاء، وليس فيه ما يصلح للمكافأة والجزاء، وبما أن ضرورة التكليف تقتضي ضرورة المكافأة، لذا كان حتما أن يكون هناك معاد ليجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وإلاّ لبطلت فائدة التكليف، ولكان عبثاً ولغواً.

---

(١) سنن الترمذي. كتاب صفة القيامة والرقائق والورع حديث رقم ٢٣٨٢.

ولو لم يكن المعاد حقاً لقبح التكليف، والتالي باطل، فالمقدم مثله، ذلك أن التكليف مشّقة مستلزمة للتعويض عنها، فإن المشّقة من غير عوض ظلم، وذلك العوض ليس بحاصل في زمان التكليف، فلا بدّ حينئذ من دار أُخرى يحصل فيها الجزاء على الأعمال، وإلاّ لكان التكليف ظلماً، وهو قبيحٌ تعالى الله عنه.

المبحث الرابع: العدل الإلهي يستلزم وجود اليوم الآخر:

والحكمة يقتضي وجوب البعث. وذلك أن الله تعالى وعد بالثواب، وتوعّد بالعقاب مع مشاهدة الموت للمكلفين، فوجب القول بعودهم ليحصل الوفاء بوعده ووعيده.

إذ لا ريب أن الناس لا يصلون إلى الثواب أو العقاب الملائم لأعمالهم في هذا الزمان المحدود ؛ فالمحسنون الذين قضوا أعمارهم في العبادة ونشر الفضائل والإصلاح في الأرض، وتحمّلوا الكوارث والمحن والأرزاء في هذا السبيل، لا يمكن لأي سلطة في الأرض أن تعطيهم مرادهم، وتوصلهم إلى ثوابهم، والمجرمون الذين ارتكبوا الجرائم الفظيعة بحقّ الإنسانية، وتوفّروا على النعم والملذّات، والحياة الرغيدة أكثر من غيرهم، قد لا يقعون في قبضة القانون، وإذا وقعوا فإن عقابهم لا يتناسب مع الجرائم التي ارتكبوها، فقد يقتص منهم مرة واحدة، وتبقى أكثر الجرائم التي ارتكبوها تمرّ بلا عقاب، وعليه فليس ثمّة قوة في هذه النشأة المحدودة تستطيع استرداد جميع الحقوق المهضومة للناس.

وإذا كان الإنسان ينعدم بالموت، ويفد الظالمون والمظلومون، والمصلحون والمفسدون، إلى مقابر الفناء دون محكمة عادلة، تثيب المحسنين، وتضع المجرمين في أشدّ العذاب، فإن ذلك خلاف العهد الإلهي الذي يقتضي التفريق بين الفريقين من حيث المصير، والثواب والعقاب، وبما أن ذلك غير متحقق في النشأة الأولى، فيجب أن يكون المعاد لتجسيد العدالة الإلهية تجسيداً عملياً، وتحقيق الوعد الرباني الصادق في الوفاء للأنبياء والأولياء والشهداء والأبرار من عباد الله الصالحين والانتقام من الظالمين والمفسدين.

وقد صرحت الآيات الكريمة بهذا الدليل على مستويين:

الأول: التأكيد على الفرق بين العاصي والمطيع في النشأة الأخرى، لتحقيق الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، وذلك مقتضى العدل الإلهي.

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[يونس:٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى* وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى* وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى٢﴾[النازعات: ٣٧ ــ ٤١].

والثاني: التنديد بالتسوية بين الفريقين وإنكارها.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ﴾[السجدة:١٨].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية: ٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ* أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٤ ــ ٣٦].

ولو لم يكن هناك هذا اليوم ما تحققت عدالة السماء ولكان الظالم والباغي في هذه أسعد حظاً وأرغد ممن ظُلم وبُغي عليه، وذلك لأنك ترى الدنيا وفيها الظالم يظلم ويفجر ويعيث في الأرض فساداً ومع ذلك فمن الممكن أن تجده أرغد عيشاً وأحسن حظاً في حياته الدنيا من المظلوم الذي قد تجده محروماً من كل طيبات الحياة الدنيا، وما تمتع من طيبات الحياة الدنيا بشيء وتحمل كل الآلام والجراح وما خرج من حياته الدنيا بشيء.

ومن الممكن كذلك أن تنتهي حياة الاثنين من غير أن يقتص من الظالم أو أن يأخذ المظلوم حقه، فلو اقتصر الأمر على ذلك لتجرأ فريق من الناس على أن يصف الحق سبحانه بالظلم حاشاه سبحانه من ذلك فهو القائل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٤]

والقائل: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وذلك لأن المظلوم قد تحمل الوزر والغرم كله من غير أن يكافأ على مظلمته والظالم قد حاز الغنم كله من غير أن يلقى جزاء بغيه وظلمه.

ومن هنا كان لابد من يوم آخر يتحقق فيه العدل والإنصاف بين العباد، ويقتص من الظالم ويأخذ المظلوم حقه كاملاً غير منقوص، ولا يقتص تحقيق العدل فيه على البشر فحسب وإنما يمتد ليشمل المخلوقات جميعاً حتى البهائم والدواب:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ: (لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ)*(١).

فكان هذا اليوم هو يوم الحساب والقصاص والجزاء والفصل بين العباد، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

القسم الثاني:: الأدلة الحسية

وهي تلكم الأدلة والبراهين التي تظهر بصورة واضحة تماماً للعين المجردة، ويستطيع المرء إدراكها والوصول إليها في كل شيء يستطيع إدراكها في نفسه، كما يمكنه مشاهدتها في طعامه وشرابه، وفي هذا العالم المحيط به من حوله، وبيان ذلك في المباحث التالية:

المبحث الأول: الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى:

لقد بُعث رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وكذبه المشركون وكفروا به وسخروا منه واستهزؤا به وكانت قضية البعث والنشور من القضايا التي جعلوها مجالاً لتكذيبهم وموضوعاً لسخريتهم، ومادة يحاولون من خلالها النيل من رسالة الإسلام بما يثيرونه حولها من شبهات وبما يعرضونه فيها من افتراءات فإذا كان الإيمان بالبعث يمثل ركناً من أركان الإيمان حرصت آيات القرآن على التأكيد على ذلك فكان همهم على هدم أركان هذا الدين ركناً ركناً ومن بينها قضية البعث والجزاء فلقد أخذت حيزاً كبيراً في صراع المشركين مع رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وسجلت آيات القرآن جوانب من ذلك نعرض هنا بعضاً منها:

{ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ* بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ* أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ* قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}[ق: ١-٤].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم ٤٦٧٩.

{أَوَلَمْ يَرَ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ* وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٧٩)}[يس:]

{وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً* قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً* أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً}[الإسراء:٤٩-٥١]

{يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ* أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً* قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ* فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ* فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}[النازعات:١٠-١٤].

{وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ*أَوْ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ* قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ* لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}[الواقعة:٤٧-٥٠].

هذه بعض شبهات المشركين التي اجتهدوا في إثارتها حول إمكانية البعث وإعادة الخلق مرة أخرى، وكل شبهاتهم تقريباً تدور حول استحالة أن تعود العظام النخرة والأجساد البالية بعد أن صارت تراباً تعود إلى الحياة مرة أخرى فجاء الرد مفنداً لهذه الشبهات، ولكنك ترى أن كل آية من الآيات جاءت بدليل وبرهان جديد فإذا كانت الشبهة واحدة فإن حجج إبطالها وتفنيدها تنوعت وتباينت بعدد المواضع التي جاء لها ذكر في كتاب الله تعالى.

ففي سورة الإسراء جاء الحديث فيها عن استبعادهم البعث على صيغة الاستفهام الإنكاري والجحود المطلق: {وقالوا أءذا كنا عظاما ورفاتا أءنا لمبعوثون خلقا جديدا، قل كونوا حجارة أو حديدا، أو خلقا مما يكبر في صدوركم، فيسقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة، فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا}.(الإسراء (٤٩- ٥١).

وكان هذا غاية الإنكار منهم، كما قال الألوسي:"فيه من الدلالة على غلوّهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيد عليه".١.

١[٣٧] تفسير روح المعاني للألوسي جـ٩١/٥.

لكن عقول القوم قد فسدت لسجودهم للحجارة فغاب عنهم قول الله تعالى: {هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا} (الإنسان ١). أو أصبح ترابا فكانت إعادته أيسر وأهـــون.

فجاء هم الجواب من الله ردا على هذا التعجب على جهة التعجيز لما استبعدوه: {قل كونوا حجارة أو حديدا، أو خلقا مما يكبر في صدوركم} (الإسراء ٥٠، ٥١).في الشدة أو الضخامة والصلابة في نظركم من الحجارة والحديد، ويصعب في نظركم قبول الحياة فيها أو التصرف فيها إعداما وإنشاء، فكيف بالعظام والرفات فإن فيها رائحة البشرية وفيها ذكرى الحياة؛ والحديد والحجارة أبعد عن الحياة.

ذكر الفخر الرازي: إنّ المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة، فالعظم قد كان جزءا من بدن الحـــي، أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة، فلو صارت أبدان الناس حجارة أو حديدا بعد الموت، فإن الله يعيد الحياة إليها ويجعلها حيا عاقلا كما كان ١.

ولكن لا زال الشك يجول أذهان المنكرين للبعث كما ذكر الله عنهم بقوله: {فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة، فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا}.(الإسراء ٥١) ٢.

وفي سورة يس قبل أن تعرض لشبهة المشركين بدأت أولاً ببيان أصل الخلق للإنسان فقال سبحانه: {أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ* وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس:٧٧-٧٩].

ومثلها في سورة الحج: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً} [الحج:٥].

وقال ﷻ: {وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحى العظام وهي رميم} (يسين ٧٨).فإن النطفة التي خلق منها الإنسان لا تزيد حيوية أو قدرا وقدرة على

١[٣٨] مفاتيح الغيب للفخر الرازي جـ٢٠/٢٢٦.

٢[٤٠] مفاتيح الغيب للفخر الرازي جـ٢٠/٢٢٨، وانظر العقيدة الطحاوية ص (٤٥٦، ٤٥٩)، تلبيس إبليس لابن الجوزي (٧١) تفسير روح المعاني للألوسي جـ٥/٩٠، في ظلال القرآن لسيد قطب جـ٤/٢٢٣٣.

العظم الرميم البالي المفتت حتى يضرب بها هذا الكافر المثل. أم أنه لم يخلق منها؟.قال تعالى: {أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون} (الطور ٣٥، ٣٦)..

أم أن هذه ليست نشأة أولى؟. أم أنه قياس للقدرة الإلهية الشاملة على قدرة نفسه الضعيفة، فتكون الإجابة في كل الأحوال واحدة: {قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم} (يسين ٧٩). فالله يعلم مذهب العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها وتفرقها وتمزقها، ويعلم مم يعيد خلق الإنسان كما بدأه من أصغر جزء في الإنسان وهو: عجب الذنب.

{فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ* إِنَّهُ عَلَى رَجْعِه لَقَادِرٌ}[٥-٨].

وبين الله في آية أخرى أن هذا لا يدعو إلى الاستغراب، بل الأعجب منه قدرة الله تعالى على أن يعيد هذا الإنسان الكامل الشديد في خلقه - على أحد الأقوال - مَنياً كما كان، ثم يعيده إلى إحليل أبيه: {يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر...} (الطارق ٧، ٨).[1]

ذكر الفخر الرازي عن بعض العلماء قوله: لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها، إذ لاشك أن الإعادة ثانيا أهون من الإيجاد أولاً.[2].

وفي هذا المقام يقول الزمخشري [3]: قبح الله عز وجل إنكارهم للبعث تقبيحا لا ترى أعجب منه وأبلغ، وأدل على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي، وتوغله في الخسة وتغلغله في القحة - من الوقاحة وهو قلة الحياء- حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخس شيء وأمهنه وهي النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة، ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءة أوله لمخاصمة الجبار... ويقول: من يقدر على إحياء الميت بعد ما

---

[1] [٤٢] تفسير الكشاف للزمخشري جـ٤/٧٢٣، تفسير ابن كثير جـ٤/٤٩٨، تفسير فتح القدير للشوكاني جـ٥/٤٢٠.

[2] [٤٣] تفسير الفخر الرازي جـ٢١/٢٤٢.

[3] [٤٤] هو: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري جار الله من أئمة التفسير والأصول واللغة والأدب ت (٥٣٨) هـ الأعلام لخير الدين الزركلي جـ٧/١٧٨.

رمت عظامه، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به، وهو كونه منشأه من موات، وهو ينكر إنشاءه من موات، وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها.

وما أروع تعقيب صاحب الظلال على هذه الآيات حيث يقول: فهذه نشأة الإنسان الأولى تدل على هذه الحقيقة وتوحي بأن الإنسان ليس متروكا سدى ولا هملا ضياعا، لقد كان هذا سرا مكنونا في علم الله لا يعلمه البشر حتى كان نصف القرن الأخير حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته، وعلى المسافة الهائلة بين المنشأ والمصير، هذه المسافة الهائلة التي يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق توحي بأن هنالك يدا خارج ذات الإنسان هي التي تدفع بهذا الشيء المائع الذي لا قوام لـــه ولا إرادة ولا قدرة، وهناك حافظ من أمر الله يحفظ ويرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل ومن الإرادة والقدرة، وهي تحتوي من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب من مولده إلى مماته.

هذه الخلية الواحدة الملقحة لا تكاد ترى بالمجهر تبدأ في الحال بمجرد استقرارها في الرحم في عملية بحث عن الغذاء حيث تزودها اليد الحافظة بخاصة أكالة تحوّل بها جدار الرحم حولها إلى بركة من الدم السائل المعَد للغذاء.

وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ في عملية جديدة عملية انقسام مستمرة تنشأ عنها خلايا وتعرف هذه الخلية"الساذجة"التي لا قوام لها ولا تعرف ماذا هي فاعلة وماذا هي تريد حيث تُزوّدها اليد الحافظة بالهدى والمعرفة والقدرة والإرادة التي تعرف بها الطريق؟، وإذا بهذه الخلايا تعرف وظيفتها وطريقها فينطلق كل مجموعة منها بوظيفة يخصها لبناء هذا الإنسان دون أن تخطيء طريقها في هذه المتاهة الهائلة.

فمن ترى قال لها: إن هذا الجهاز يحتاج إلى عين في هذا المكان دون سواه؟ إنه الحافظ الأعلى الذي يرعاها ويوجهها ويهديها إلى طريقها في المتاهة التي لا هادي لها إلا الله.

وكل خلية تعمل في نطاق ترسمه لها مجموعة معينة هي وحدات الوراثة الحافظة لخصائص نوع الإنسان فحسب دون غيره كذلك خصائص الأجداد.

فمن ذا الذي أودعها هذه القدرة وعلمها ذلك التعليم؟ وهي الخلية الساذجة لا عقل ولا إدراك ولا إرادة لها إنه الله علمها ما يعجز الإنسان كله عن تصميمه لو وكِل إليه تصميم عين أو جزء من عين، بينما خلية واحدة منه أو عدة خلايا ساذجة تقوم بهذا العمل العظيم.

وراء هذه اللمحة الخاطفة عن صور الرحلة الطويلة العجيبة بين الماء الدافق والإنسان الناطق حشود لا تحصى من العجائب في خصائص الأجهزة والأعضاء تشهد كلها بالتقدير والتدبير وباليد الحافظة المادية، وتؤكد الحقيقة الأولى التي أقسم الله عليها بالسماء والطارق، كما تمهد للحقيقة التالية حقيقة النشأة الآخرة التي لا يصدقها المشركون.

{إنه على رَجعه لقادر} (الطارق ٨).تشهد النشأة الأولى بقدرته كما تشهد بتقديره وتدبيره، فهذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب كلها عبثاً إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزي جزاءها العادل، وتتكشف وتظهر كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر، كذلك تبلى السرائر ويضاعف شدة الموقف يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر [1].

روي أن جماعة من كفار قريش منهم أبيّ بن خلف وأبو جهل والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك، فقال لهم أبيّ: ألا ترون إلى ما يقول محمد، إن الله يبعث الأموات، ثم قال: واللات والعزى لأصيرن إليه ولأخاصمنه، فأخذ عظما باليا فجعل يفته بيده وهو يقول: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رم؟، قال ﷺ: (نعم ويبعثك ويدخلك جهنم)، وفي رواية: (نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار) [2].

وعن بشر بن جحاش رضي الله عنه قال: إنّ رسول الله ﷺ بصق يوما في كفه، فوضع عليها إصبعه، ثم قال رسول الله ﷺ: (قال الله تعالى: يا بني آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنى أوان الصدقة؟) [3].

وفي سورة [ق] {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)}

---

[٨٧]١ في ظلال القرآن لسيد قطب جـ٦/٢٨٧٨.

٢[٤٥] تفسير الكشاف للزمخشري جـ٤/٢٩، وانظر: جامع البيان للطبري جـ ٢٣/٣٠، فتاوى ابن تيمية جـ٣/٢٩٩، تفسير ابن كثير جـ ٣/٥٨١، تفسير فتح القدير للشوكاني جـ٤/٣٨٤.

٣[٤٦] أخرجه أحمد في مسنده جـ٤/٢١٠، وابن ماجه جـ٢/١١٦ وإسناده: صحيح، وذكره ابن كثير في تفسيره جـ٣/٥٨١، والوئيد: الصوت الشديد الصحاح للجوهري جـ٢/٥٤٦.

بل إن الأمر لا يقتصر على مجرد الخلق والتكوين على أية هيئة كانت وإنما يعيدها الحق سبحانه بنفس الدقة والتكوين التي كانت عليها أول مرة، تلك التي كانت موضع استغراب المشركين فحسب، بل هو قادر على تسوية البناء وجمع الدقيق اللطيف من الأعضاء وإعادة البصمات الأولى للإنسان، فقال: {أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه} (القيامة ٣، ٤).

وقد رد الله على هذه الشبهة في موضع آخر من القرآن الكريم بأن الحق سبحانه يعلم من يموت منهم ومن يبقى، وأن هذه الأجزاء متميزة في علمه الله أشد التمايز، وأن الله أحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور، فقال: {قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ..} (ق ٤). وهذه الآية سبقت قول الكفار: {أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد} (ق٣).

وبين الله تعالى شمول علمه وسعة إدراكه فهو: {يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور، وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقالُ ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا في كتاب مبين} (سبأ ٢، ٣). وهذا إنما يكون بعد التسليم بقدرة الله وعلمه، ولكن قال الكافرون: إنّ هذا لشيئ عجاب.

ثم قرب القرآن الكريم الصورة للأذهان وزادها وضوحا وبيانا أكثر بقياس: (إعادة الشيء من مادته الأولى).

فإنّه قد تقرر لديهم وفي نظامهم أن إعادة الشيء من مادته الأولى أيسر عليهم من إيجادها ابتداءً، ذلك أن البدء أو النشأة الأولى فيه تدرج من طور إلى طور في إيجاد الأجزاء وتأليفها، أما الإعادة فليس فيها إلا تأليفها، وجمع الأجزاء وإعادة تركيبها مرة أخرى فحسب، قال الله ﷻ {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم}.(الروم ٢٧).

وهذا كما ذكر القرطبي مَثَلٌ ضربه الله تعالى لعباده؛ يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه؛ فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهون عليه من الإنشاء وإلا فكل الممكنات بالنسبة إلى قدرة الله سواء.[١]

[٤٠٨] أحكام القرآن للقرطبي جـ٢١/١٤، وانظر جامع البيان للطبري جـ٢١/٣٥، تفسير ابن كثير ٢/٤٣٠، تفسير فتح القدير للشوكاني جـ٤/٢٢١، تفسير روح المعاني للألوسي جـ٧/٣٦، في ظلال القرآن لسيد قطب جـ٥/٢٧٦٦.

ولقد وجه الله تعالى الأنظار إلى هذا الأمر في سورة مكية تعالج بكاملها قضية النشأة الآخرة ردا على قول الشاكين في أمرها قال تعالى: {وكانوا يقولون أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم} (الواقعة ٤٧- ٥٠).

فابتدأ سبحانه وتعالى الحديث بما يقع تحت حس البشر في حدود المشاهدات:

فيعرض أولا نشأتهم الأولى من منيّ يُمنى ثم ينقطع عمل الإنسان وتبدأ القدرة الإلهية وحدها فيقول ﷻ: {نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تمنون أءنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون} (الواقعة ٥٧- ٦٢).

ثم يدلل على ذلك بعرض صورة من واقع أمرهم وهو الحرث والزرع حيث يبذر الإنسان البذور ثم ينتهي دوره ويظهر عجزه التام عن فعل أي شيء آخر أكثر من هذا وهنا تبدأ يد القدرة الإلهية وحدها في العمل، وتظهر جانباً من عظمتها وقدرتها على الخلق والإيجاد حيث يقول الحق-سبحانه-: {أفرأيتم ما تحرثون أءنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون} (الواقعة ٦٣- ٦٥).فإذا كان الحرث والزرع يتم بقدرة الله فمن باب أولى خلق الإنسان.

ثم بعرض صورة مصدر نشأة الحياة كلها وهو الماء العذب الذي هز نفوس البشر أجمعين وخَلّدَتهُ قصائدهم وأشعارهم، فيقول: {أفرأيتم الماء الذي تشربون أءنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون} (الواقعة ٦٨- ٧٠).فلو شاء الله لجعله مالحا لا ينشيء الحياة.

ثم بعرض صورة النار ومنشأ وقودها الذي يكمن فيه النار ويحتاج إليها البشر في كل وقت وينظرون فيها قدرة الله تعالى في كل لحظة ولمحة، فيقول: {أفرأيتم النار التي تورون أءنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون} (الواقعة ٧١، ٧٢).

وأخيرا ينتهي السياق بالتحدي والمقارعة فيقول: {فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين} (الواقعة ٨٣- ٨٧).

ومما جاء في السنة توضيحا لذلك قولُ النبي ﷺ: (يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن لـــه أن يكذبني، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذيبه إياي

فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق أهون علي من آخره، وأما أذاه إياي فقوله: إنّ لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد).[1]

ثم يتدرج القرآن الكريم في إثبات القضية بعد أن أثار القوم وأيقظهم من غفلتهم ووجههم إلى البحث والنظر بشيء من البسط والتفصيل بعد الإيجاز، بقضية ألصق ما تكون بحال أنفسهم وبواقع حياتهم، ليستدلوا من خلالها على كيفية البعث وهو: بمبدأ خلق الإنسان ومراحل تطـور خلقه، قال تعالى: {وقد خلقكم أطوارا} (نوح ١٤). بما يقابله من كيفية إحياء الأرض الميتة وازدهارها بالحياة، مستدلا بذلك على قدرة الله المحضة في نظامه، وبرغم مرور الإنسان والنبات بهذه التطورات ومراحل الإيجاد التي جعلها الله سببا للوجود، فإنه قد يتم وجوده وقد لا يتم، ليكون ذلك دلالة ظاهرة على كمال قدرة الله في المعاد.

قال الله تعالى: {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث...} (الحج ٥).ينادى الله تعالى أولئك الذين فقدوا مقومات الإنسانية، يحملون عقولا ولا يعقلون، إلى إعمال الفكر حتى يعرفوا أسرار الله في هذا الكون، كيف أن مراحل خلق الإنسان وتطورها المذكورة سبقها انعدام لا حياة لها ثم وجدت بقدرة الله، فهذه النطفة الصغيرة العالقة بجدار الرحم، التي تكمن فيها خصائص الإنسان المقبل الخَلْقية والخُلُقية، وصفاته العقلية والنفسية من: غرائز ونزعات واتجاهات وانحرافات، ثم مرورها بهذه الأطوار الدقيقة الضئيلة المنتظمة التي لا يتصور فيها الحياة، فإذا به إنسان قائم معتدل الخلق، دلالة على أن الإنسان كله خلق من عدم، فهذا غاية في إيضاح الأدلة: {فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة...} (الحج ٥).من أشياء لا حياة لها، وهي قطعة من الدم جامدة متكونة من المني، تحولت هذه العالقة فأصبح خلقكم {من مضغة...} (الحج ٥).أي: قطعة من اللحم متكونة من العلقة بقدر ما تمضغ [2].{مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى...} (الحج ٥).

ثم تدب فيه الحياة حيث أعطاه الله القوة شيئا فشيئا، ولطف به فجعله في حنان وعناية الوالدين آناء الليل وأطراف النهار، حتى تزايد قواه وتكامل ووصـــل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر ويبدأ حينئذ دور التكليف والمحاسبة والجزاء: {ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرَدّ إلى أرذل العمر

---

[1] [٤٩] أخرجه البخاري جـ٦/٢٨٧، ٨/٧٣٩. وانظر تفسير ابن كثير جـ ٣/١٣١، ٤٣٠.

[2] [٥٠] وفي الحديث (ألا وإنّ في الجسد مضغة). صحيح البخاري جـ١/١٢٦.

لكيلا يعلم من بعد علم شيئا..} (الحج ٥) ثم يصبح ضعيفا في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله، لينتقل إلى عالم آخر يتم فيه محاسبته ومجازاته على ما قدم، قال تعالى: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبه، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير}.(الروم ٥٤).

فمن كان يتصور أو يصدق – لولا البيان الإلهي – أن هذا الإنسان بلحمه ودمه وعظمه وعصبه وشعره وعقله وفهمه وإدراكه وإرادته وتمييزه ونطقه، كله كان كَامناً في تلك النطفة العالقة؟، وأن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة هي هذا الإنسان السوي الممشوق القامة، الذي يختلف كل فرد من جنسه عن الآخر.

فهذه المراقبة الدقيقة، والعناية الإلهية الفائقة الشاملة بالقدرة الباهرة والحكمة البالغة، من حين مبدأ خلقه وولادته وبلوغه الأشد إلى ما شاء الله، دلالة على وجوب بعثه ثم محاسبته ومجازاته على ما قدم

ثم يوجه القرآن الكريم الأنظار بذكر صورة مطابقة لكيفية خلق الإنسان ومراحل تطوره من واقع حياة الناس، لاستخلاص العبرة على أمر المعاد عن طريق المماثلة والمشابهة، بحال الأرض الميتة اليابسة الجرداء التي سلبت خاصة النماء بفقدان الماء بسبب المحل والجدب والقحط، ثم يبعث الله فيها الروح بسقيها الماء، قال الله ﷻ {وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج} (الحج ٥) فكيف بالإنسان الذي يعد الحياة أصلا من أصوله، وجزءا من أجزائه {ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى} (الحج ٦) فأحيى النطفة والأرض الميتة مرة بعد مرة، وأقام الأدلة والبراهين على تحقق وقوع البعث من خلال خلق الإنسان ومروره على أطوار مختلفة، وإحياء الأرض بعد موتها وغير ذلك، ومن آثار قدرته أنه أوجد هذه الموجودات الفائتة الحصر التي من جملتها ما ذكر، كل هذا يثبت ألوهية الله المطلقة، وإنكار ذلك محض مكابرة وعناد يقود الإنسان إلى الخسارة المتحققة [١].

{وأنه على كل شيء قدير} (الحج ٦).فمن آثار قدرته أنه أحيى الأرض وأخرج منها النبات بعد أن عادت إليها الحياة كأحسن ما كانت نماء وازدهارا ألوانا وأشكالا من كل زوج بهيج من كل صنف ولون حسن المنظر طيب الرائحة.

---

[١] [٥١] ومن أسرار الكتاب العزيز، أن الله تعالى خص إحياء الموتى بالذكر في الآية مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها، ذلك لأنه مما وقع النزاع والجدال.

فلو كان أمر المعاد مستحيلا كما تصوره هؤلاء المنكرون لما عادت الحياة إلى الأرض الميتة، ولما خرج منها النبات.

{وأن الساعة ءاتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور}.(الحج ٧). عند إذ يتبدد الظلام وينكشف الغطاء وتتضح الأمور على حقيقتها، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

لقد جعل القرآن من قضية الخلق والنشأة الأولى دليلاً وبرهاناً على أن الله قادر على الخلق مرة ثانية، وهو دليل من البساطة والوضوح بمكان، بحيث أنه لا يقدر أحد على إنكاره أو المكابرة في مصداقيته، فالإنسان يوقن تمام اليقين بأنه لا يمكن أن يكون هو الذي خلق نفسه، كما أنه يعلم بأنه لا يمكن أن يكون قد خلق من غير خالق، أو أن الطبيعة هي التي خلقته كما يدعي الملحدون، أو أنه خلقه مخلوق مثله، يقول سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[الزخرف: ٨٧].

فالبشرية كلها على يقين بأن الخالق هو الحق سبحانه وتعالى ومن هنا ربطت آيات القرآن ربطاً وثيقاً بين البعث والنشأة الأولى، وجعلت من هذه النشأة أصدق دليل وأوضح برهان على أن الله قادر على أن يبعث العباد مرة أخرى

هذا جانب من أسلوب القرآن في تناوله لقضية البعث بعد الموت حيث ساق الأدلة والبراهين وجعل من النشأة الأولى ومن خلق الإنسان أول مرة دليلاً على قدرة الله على البعث، وهذا الدليل قد يقنع الباحث في معمله أو محراب فكره، ولكن ليس كل الناس على هذا المقدرة من التفكير والذكاء.

فماذا عن الإنسان العادي الذي لم يأخذ حظاً من الدراسة والعلم، أو لم يعط قدراً كبيراً من الذكاء والفهم يساعده على أن يستوعب مثل هذا النوع من الأدلة والبراهين، إن الحق سبحانه لم يترك أمثال هؤلاء حيارى يتخبطون، وإنما جاءت لهم آيات القرآن بأدلة وبراهين تتناسب ومستواهم العقلي وتتفق ومقدرتهم على التفكير، وتصور حقائق الأشياء، فهذا المزارع في حقله والراعي في باديته، قد لا يستوعب مثل هذا النوع من الأدلة والبراهين، ولا يقدر على فهمه كما ينبغي، وقد لا تكون لديه من أدوات البحث ومستجدات العلم من معامل ومختبرات ما تساعده على استكشاف قدرة الله في الخلق فى النطفة والمضغة والعلقة فنجد أن القرآن يخاطبه بدليل من البيئة التي يحيا فيها، ويستخرج له منها دليلاً وبرهاناً على قدرة الله على بعث العباد بعد الموت، وهو دليل يتكرر أمام عينيه في كل يوم مئات أو آلاف المرات.

لقد جعل الحق سبحانه من النبتة التي تخرجها الأرض من حوله دليلاً وبرهاناً على قدرة الله تعالى على البعث وعلى إحياء العباد بعد الموت،

المبحث الثاني: خروج النبات من باطن الأرض

يقول الحق سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[فاطر: ٩].

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ. فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الروم: ٤٨-٥٠].

لقد برهنت هذه الآيات على قدرة الله على البعث حيث جعلت من خروج النبات والزرع من باطن الأرض دليلاً على قدرة الله على البعث.

إن حقيقة الحياة في حد ذاتها ذات طبيعة ونوع واحد، ولكنها تختلف في أشكالها وألوانها حسب ملابساتها، ولقد دعى القرآن الكريم إلى استخلاص ذلك من واقع أمر البشر، كما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام وهو يدعو قومه إلى معرفة أمر البعث فيقول: {والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا} (نوح ١٧، ١٨).

وفي آية سورة عبس يذكر الله تعالى هذا التشابه مفصلا فيقول: {فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا..} (عبس ٢٤- ٣١).

ثم ربط القرآن الكريم حقيقة الحياة الدنيوية لبعض مخلوقات الله وبين النشأة الأخرى موضحا ذلك على طريقة الناس في معرفتهم لنشأة هذه الحياة.

فيصور كيفية انبعاث الحياة في الأبدان المودعة في القبور، بحال انبعاث الحياة في النبات المودعة في الأرض، بما يطرأ عليهما من أحوال مختلفة من حياة وموت بطريقة متعاقبة، فقال ﷻ: {والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور}.(فاطر ٩). فخروج النبات يكون من بذرة موذعة في الأرض بعد سقيها الماء. والموتى من العصعص أو عجب الذنب المودع في الأرض بعد نفخ الروح فيهم.

ومن جانب آخر فحينما نتأمل في هذه الآيات سورة [فصلت:]٢٩نرى بأنها قد تحدثت عن الأرض وكأنها جسد ميت، أو كأنها كجثة هامدة، فإذا ما نزلت عليها مياه الأمطار بدأت الحياة تدب في أوصال هذا الجسد الميت، ودبت فيها الحياة، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: اهتزت وربت. إنها كجسد ميت بدأت تدب في أوصاله أسباب الحياة فهي تهتز وتتحرك وتربو وتزداد وتنمو، وتنبت من كل ألوان النبات وأصنافه ما يبهج الناظرين إليه، ويمتعهم ويسر أعينهم.

وفي الآية الأخرى في سورة [الحج:٥]يبين المولى سبحانه بأن الأرض كالجثة الهامدة فإذا نزل عليها الماء تحركت هذه الجثة وبدأت في النمو والزيادة ودبت فيها الحياة.

ويربط الحق سبحانه بين هذا الأمر وبين البعث بعد الموت حيث يقول سبحانه:﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[فصلت: ٣٩].

وفي الآية الأخرى عقب عليها بقوله:﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]أي كما أخرج النبات من باطن الأرض يبعث العباد بعد الموت.

وفي سورة الروم حيث يقول سبحانه: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الروم: ٥٠].

وفي سورة فصلت: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[فصلت: ٣٩].

ويقرب النبي ﷺ هذا المعنى ويوضحه لأصحابه فيما رواه عنه أبو رزين العقيلي ؓ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله كيف يحي الله الموتى؟، قال: (أمررت بأرض من أرض قومك مجدبة، ثم مررت بها مخصبة؟) قال: نعم قال: (وكذلك النشور).

وفي رواية عنه قلت يا رسول الله كيف يحي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟، قال: (أما مررت بوادي أهلك مَحْلاً؟) قال: بلى، قال: (ثم مررت به يهتز خضراً) قال: قلت بلى، قال: (ثم مررت به محلا؟) قال: بلى قال: (فكذلك يحي الله الموتى وذلك آيته في خلقه).١.

كل هذه الأدلة لا تدع مجالاً للمحد أن يشكك في قدرة الله على البعث بعد الموت فهي من الوضوح والظهور بمكان حتى إنها لا تترك مجالاً لمشكك في قدرة الله بعد ذلك، ولو ترك كبره وغروره لأيقن بأن البعث حق وان الجنة حق وأن النار حق وأن الله حق وأن الله يبعث من في القبور.

ولقد بينت الأحاديث الصحيحة بأن بعث العباد وإخراجهم من قبورهم يتم على صورة قريبة من الصورة التي تخرج بها النبتة من باطن الأرض فكلاهما أولاً خلق الله سبحانه وكلاهما كذلك قد نشأ من هذه الأرض وإليها يعود ومنها يخرج مرة أخرى فحديث عجب الذنب يبين بأن هذا العجب يشبه هذه البذرة أو الحبة التي تلقي في التربة وتروى بالماء وتدب فيها الحياة

كذلك الحديث الذي يصور كيفية إعادة الخلق مرة أخرى روي عن أبي هريرة وابن عباس ومجاهد رضى الله عنهم أن الناس إذا ماتوا مع النفخة الأولى، أمطر عليهم ماء من تحت العرش يُدعى (ماء الحياة) أربعين سنة، فينبتون كما ينبت الزرع من الماء حتى تشقق عنهم الأرض ثم يرسل سبحانه الأرواح فتعود كل روح إلى جسدها، وفي رواية: أربعين يوما فينبتون في قبورهم نبات الزرع، حتى إذا استكملت أجسادهم، ينفخ فيهم الروح، ثم يلقى عليهم النوم فينامون في قبورهم، فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية عاشوا، ثم يحشرون من قبورهم ويجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم، كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه، فعند ذلك يقولون: {يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا}

١[٥٢] الحديث أخرج طرفا منه أبو داود جـ٢٣٤/٤، وأحمد في مسنده جـ١١/٤، ١٢، وذكره ابن كثير في تفسيره جـ٢٠٨/٣.

(محلا) أي: انقطع عنه المطر فأصبح جدبا النهاية في غريب الحديث لابن الأثير جـ٣٠٤/٤.

وانظر جامع البيان للطبري جـ١١٦/١٧، تفسير الفخر الرازي جـ٨/٢١، أحكام القرآن للقرطبي جـ٦/١٢، تفسير ابن كثير جـ٢٠٦/٣، تفسير روح المعاني للألوسي جـ١١٥/٦،، تفسير فتح القدير للشوكاني جـ٤٣٦/٣، في ظلال القرآن لسيد قطب جـ٢٤٠٩/٤. وأبحاث منشورة على الشبكة العنكبوتية تحت عناوين مختلفة منها: منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت.

(يسين ٥٢) فيناديهم المنادي: {هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون} (يسين ٥٢).[1]

المبحث الثالث: وقائع وأحداث وتجارب من التاريخ:

لم تقتصر الأدلة التي جاءت بها آيات القرآن على ذلك، وإنما جاءت بأدلة من التاريخ البعيد، وأمثلة حية لتجارب وقعت يوماً على وجه الأرض، لأشخاص ماتوا ثم عادوا إلى الحياة مرة، وهذا الدليل يعنى كثيراً بفئة من الناس يكون محور اهتمامها منصباً على أحداث التاريخ ووقائع الأيام، فيستخرج لهم منها المولى سبحانه دليلاً وبرهاناً على قدرة الله على البعث بعد الموت حيث ذكر المولى سبحانه أحداثاً كثيرة وقعت، وفي أزمنة مختلفة من التاريخ، وقعت لأفراد كما وقعت لجماعات كذلك، ولقد حفلت سورة البقرة بقسط وافر من هذه الأحداث منها:

1صحيح مسلم جـ٤/٢٢٥٩، أحكام القرآن للقرطبي جـ٧/٢٣٠،٢٢٨، فتاوى ابن تيمية جـ١٧/٢٤٨، تفسير ابن كثير جـ٢/٢٦٦، ٤/٤٧٢، تفسير فتح القدير للشوكاني جـ٢/٢١٤، ٢١٥، تفسير روح المعاني للألوسي جـ٣/١٤٤، في ظلال القرآن لسيد قطب جـ٣/١٢٩٨.

١-صاحب البقرة:

لقد وقعت أحداث هذه القصة في عهد نبي الله موسى عليه السلام وأثناء فترة وجوده فيما بينهم، حيث فوجئ بنوا إسرائيل يوماً بقتيل فيهم لا يعرفون له قاتلاً، فطلبوا من نبي الله موسى أن يسأل ربه عن قاتله، وظنوا بأن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من أن يسأل موسى ربه ويخبره ربه باسم القاتل وينتهي الأمر عند هذا الحد.

ولكن الحق سبحانه أراد أن يجعل من هذا الحدث دليلاً ملموساً وتجربة حية على قدرة الله على البعث، وعلى إحياء الموتى فكانت قصة البقرة التي عرضتها آيات سورة البقرة.

ومن خلالها نلمح جانباً من شخصية اليهودي المتعنتة والمحبة للمراء والجدال بسبب وبدون سبب، حيث إن نبي الله موسى قد قال لهم: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾.

والكلام في غاية الصراحة والوضوح فالأمر من الله سبحانه وهو موجه إليهم بصورة واضحة ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ فما كان منهم إلا أن قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ أتتخذنا هزواً أهزأ بنا وتسخر منا بذلك ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أعوذ بالله أن أسخر في مثل هذا الأمر أو أكون من الجاهلين.

كان هذا أمر الله سبحانه، ولو أن القوم نفذوا هذا الأمر من اللحظة الأولى، وبحثوا عن أية بقرة وذبحوها لأغنت عنهم، فإن الأمر في الآية لم يحدد بقرة بعينها، وإنما جاء وصف البقرة بصيغة النكرة، وهي تفيد العموم كأنه يقول لهم: أي بقرة كانت فاذبحوها، ولكنهم قوم خصمون لا يعجبهم أن ينتهي الأمر بهذه البساطة والسهولة واليسر، أبوا إلا أن يشددوا على أنفسهم فشدد المولى سبحانه وتعالى عليهم، فما اقتنعوا بذلك وإنما قالو لنبي الله موسى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ﴾[البقرة: ٦٨].

لقد سألوا عن ماهية هذه البقرة فجاء الرد بأنها بقرة لا فارض ولا بكر، أي أنها ليست بقرة صغيرة في العمر ولا طاعنة في السن، وكانوا في غنى عن مثل هذا الشرط ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

ولم يكتفوا بذلك، ولم يرضهم هذا أو يقنعهم ذلك، ولكنهم زادوا في تعنتهم حيث قالوا:﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِـعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾٦٩

ما لون هذه البقرة لقد كان القوم في غنى عن مثل هذا الشرط، فلقد كانت كل أنواع البقر وألوانها متاحة لهم وأمام أعينهم، وكان في مكنتهم وفي استطاعتهم أن يختاروا أية بقرة كانت، ومن أي لون، ولكن نفسيتهم الملتوية والمعقدة أبت إلا أن يشددوا ويتعنتوا فلما سألوا عن لونها قال إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين إليها، وتعجبهم بمنظرها، وبذلك حصروا أنفسهم في هذا اللون فقط، وكانت كل ألوان البقر متاحة أمام أعينهم قبل. ومع ذلك لم يرضيهم هذا أيضاً، ولم يقتنعوا بهذا الأمر وإنما عادوا لجدالهم مرة أخرى حيث قالوا لنبي الله موسى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾

لقد قالوا لنبي الله موسى: إن أنواع البقر كثيرة، وإنا نريد تحديداً أدق ووصفاً أشمل لهذه البقرة فأخبرنا عنها، وسوف نصل إليها بمشيئة الله تعالى، ولعلهم لو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا إليها قط، فلما قالوا ذلك، قال لهم نبي الله موسى إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها، إنها بقرة مرفهة ومدللة فهي ليست ذليلة مهانة في السقي والحرث والعمل الشاق، وإنما هي بعيدة عن ذلك كله وفوق هذا إنها بقرة سالمة من العيوب جميعاً، فلما قال نبي الله موسى ذلك: قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ. الآن جئت بالحق الآن فقط جاء موسى بالحق وكأن كل ما جاء به قبل ذلك لم يكن من الحق في شيء ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾٧١.

بعد جهد جهيد وعنت شديد ومراء لا مثيل له ولا نظير وصلوا إلى هذه البقرة فذبحوها، وما كادوا لتعنتهم يفعلون ذلك.

فلما ذبحوها أمرهم المولى سبحانه أن يضربوه ببعضها بجزء منها لم يحدده القرآن ولا يحتاج القرآن إلى تحديد هذا الجزء فتحديده لا يزيد في أحداث القصة شيئاً: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ اضربوه بجزء منها، فلما ضربوه بهذا الجزء رد الله إلى هذا القتيل روحه وأحياه مرة أخرى فانتبه وأخبر عن قاتله، فلما تم ذلك عقب الله على هذا الحدث بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾٧٣.

أي كما أحيا الله هذا القتيل يحيي الموتى يوم القيامة ويريكم آياته لعلكم تعقلون، فهذا دليل ساقته آيات سورة البقرة لتثبت من خلاله كيف أن الله قادر على أن يبعث الخلق مرة ثانية بعد الموت.

لقد عرض القرآن الكريم قضية الإحياء والمعاد في هذه الحادثة في أبسط صُوَره وهي رؤيا العين لينتفي الريب والشك تماما، فقال ﷻ {وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها، والله مخرج ما كنتم تكتمون، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته..} (البقرة ٧٢).

لم يكن الغرض من هذه الحادثة إحياء هذا الميت ليكشف لهم عن قاتله فحسب، بل ليكشف الله للقوم بأنه جعل ذبح البقرة وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله في إحياء الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل، حتى يبلغوا مَن بَعدَهم قدرة الله على الإيجاد والمعاد [٦٤].

وفي هذه الحادثة أمران عجيبان: أولهما: أن الله أحيا هذا الميت بضرب جزء ميت فقام بأمر الله.

ثانيهما: أنه أوكل إلى القوم اتخاذ السبب في إحياء الميت، فبأيديهم باشروا إحياء الميت، ليجعل الله تبارك وتعالى هذا الصنيع حجة لهم وحجة على غيرهم على وقوع المعاد {كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون}.(البقرة ٧٣).

لقد أثبتت هذه الآيات من خلال عرضها لهذه الأحداث بأن الله قادر على إحياء الموتى، ولقد ربطت الآيات بين هذه الأحداث، وبين قدرة الله على البعث حيث التعقيب على ذلك في ختام الآيات ونهاية الحدث: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

٢-صاحب القرية

وبعد هذه التجربة تعرض آيات سورة البقرة تجربة أخرى لرجل مر يوماً على قرية وهي خاوية على عروشها قد ذهبت كل معالم الحياة منها، وما عاد فيها مظهر من مظاهر الحياة، فكل ما فيه موات وخراب، فالديار خربة والمباني مهدمة والناس موتى، وليس في هذه القرية أي مظهر من مظاهر الحياة، فلما رأى هذا الرجل ذلك تسائل متعجباً من قدرة الله تعالى: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي كيف يحيي الله هذه القرية وأهلها بعد هذا الخراب الذي قد نزل بها، فلما قال ذلك ماذا حدث له ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ فما كان إلا أن مات في نفس اللحظة التي قال فيها ذلك وهذا ما تنبئ عنه الآية ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ

---

[٦٤] راجع أحكام القرآن للقرطبي جـ١/٤٥٥، تفسير فتح القدير للشوكاني جـ١/١٠٠، تفسير روح المعاني للألوسي جـ١/٢٩٣، في ظلال القرآن لسيد قطب جـ١/٧٩.

لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ﴾ فلقد جاء العطف في الآية بالفاء وهي تفيد الترتيب والتعقيب، لقد فارق الرجل الحياة لمدة مئة من السنين، مات موتاً حقيقاً ما كان نوماً وإنما موتاً تاماً.

وبعد هذه المدة أحياه المولى سبحانه وعادت إلى الرجل الحياة مرة أخرى، فلما بعثه المولى سبحانه، سأله كم لبثت في هذا الوضع؟ قال الرجل: لبثت يوماً، ولعل الرجل قد نظر حوله فرأى بأن الشمس لم تغب بعد قال: أو بعض يوم، فقال له ربه: بل لبثت مئة عام، لقد مكثت ميتاً مئة عام، وأراد المولى سبحانه أن يبين له آية على حاله هذا فجعل له الآية في طعامه وشرابه وحماره، فقال له ﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ انظر إلى طعامك وشرابك لم يتغير، لقد حفظ الحق سبحانه للرجل طعامه وشرابه لمدة مئة سنة لم تؤثر فيه مرور الأيام وكر السنين، ولم يتعفن أو يتغير أو يتبخر الماء من شرابه على الرغم من مرور مئة سنة عليه، وجعل له آية أخرى في حماره، فقال له:﴿وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾. يقول صاحب الظلال:وتبعا لطبيعة التجربة، وكونها تجربة حسية واقعية، نتصور أنه لا بد كانت هنالك آثار محسوسة تصور فعل مائة عام.. هذه الآثار المحسوسة لم تكن في طعام الرجل ولا شرابه، فلم يكونا آسنين متعفنين:«فَانْظُرْ إلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ».. وإذن فلا بد أن هذه الآثار المحسوسة كانت متمثلة في شخصه أو في حماره:«وَانْظُرْ إِلى حِمارِكَ - وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ - وَانْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً».. أية عظام؟ عظامه هو؟ لو كان الأمر كذلك - كما يقول بعض المفسرين إن عظامه هي التي تعرت من اللحم - للفت هذا نظره عند ما استيقظ، ووخز حسه كذلك، ولما كانت إجابته: «لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ». لذلك نرجح أن الحمار هو الذي تعرت عظامه وتفسخت. ثم كانت الآية هي ضم هذه العظام بعضها إلى بعض وكسوتها باللحم وردها إلى الحياة، على مرأى من صاحبه الذي لم يمسه البلى، ولم يصب طعامه ولا شرابه التعفن. ليكون هذا التباين في المصائر والجميع في مكان واحد، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة، آية أخرى على القدرة التي لا يعجزها شيء، والتي تتصرف مطلقة من كل قيد وليدرك الرجل كيف يحيي هذه الله بعد موتها! أما كيف وقعت الخارقة؟ فكما تقع كل خارقة! كما وقعت خارقة الحياة الأولى. الخارقة

التي ننسى كثيرا أنها وقعت، وأننا لا ندري كيف وقعت! ولا ندري كذلك كيف جاءت إلا أنها جاءت من عند الله بالطريق التي أرادها الله..(١).

لقد جعل الحق سبحانه الآية في حمار هذا الرجل وذلك أن حماره قد مات مثلما الرجل ولكن الحمار أثرت فيه عوامل الطبيعة فتحللت جثته، وتبعثرت عظامه، ورأى الرجل حمار عظامه وهي مبعثرة ومتفرقة، وشاهدها عظاماً نخرة، وخاطبه ربه: وانظر إلى العظام كيف ننشزها انظر إلى هذه العظام النخرة كيف نجمعها مرة ثانية ثم نكسوها لحماً، ويتم هذا الأمر كله أمام عيني الرجل كأنه مشهد مصور يعرض أمام عينيه بالتصوير البطيء فلما تم ذلك وتبين له صدق هذا الأمر، وقد مر أمام عينيه في تجربة عملية، بل إنه قد مر بهذه التجربة بنفسه فلما تبين له ذلك قال أعلم أن الله على كل شيء قدير. أوقن أن الله قادر على كل شيء، ومن بين ذلك قدرة الله على إحياء الموتى.

لقد تسائل الرجل في البداية عن القرية التي مر بها ﴿أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

فجعله المولى سبحانه آية للناس وجعله يمر بهذه التجربة هو وحماره وطعامه وشرابه كذلك، فلما تبين له ذلك كله وشاهده في تجربة حية واقعية، فما كان من الرجل إلا أن قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأوقن بأن الله قادر على كل شيء.

كانت هذه تجربة عرضتها آيات صورة البقرة ولم تقتصر آيات السورة على ذلك فلقد عرضت آياتها كذلك لتجارب أخرى منها هذه الحادثة التي قال عنها المولى سبحانه:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[البقرة: ٢٤٣].

إن الآيات تخبرنا عن أمة من الأمم خرجوا من ديارهم فراراً من الموت وهروباً منه وعلهم قد هربوا من وباء فتاك كمرض الطاعون مثلاً، أو من عدو غاشم فلما هربوا من ديارهم وخرجوا منها، أدركهم ما هربوا منه ولحقهم ما فروا من ديارهم حذرين من وقوعه ألا وهو الموت فقال لهم الله موتوا فماتوا جميعاً ثم أحياهم المولى

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ١/٣٠٠.

سبحانه وتعالى بعد ذلك. فكانت هذه تجربة واقعية أخرى تؤكد قدرة الله على إحياء الموتى.

وفي قصة نبي الله موسى مع بني إسرائيل يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة: ٥٥]. لقد طلب بنوا إسرائيل من موسى رؤية الله سبحانه واشترطوا أن يتم ذلك كي يؤمنوا بالله سبحانه فعاقبهم المولى سبحانه بالموت فماتوا جميعاً، ثم أحياهم الحق سبحانه مرة ثانية حيث يقول سبحانه:﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[البقرة: ٥٦].

فهذا دليل آخر على قدة الله على إحياء الموتى.

بل لقد جعل الحق سبحانه إحياء الموتى معجزة لنبيه عيسى عليه السلام حيث يقول سبحانه: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي﴾[المائدة: ١١٠].

لقد بينت الآيات بأن الحق سبحانه قد أيد نبيه عيسى بمعجزات كثيرة، كان من بينها أنه يصور من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله تعالى، وأنه يحيي الموتى بإذن الله تعالى.

وبعد فهذه أحداث قد وقعت في أزمنة متعاقبة وعصور مختلفة فبعضها كما يعرف قبل تاريخ الميلاد وبعضها بعد هذا التاريخ، وبعضها وقعت مع شخص واحد كما حدث مع صاحب القرية، أو مع عشرات الأفراد أو مع آلاف منهم، وبعضها كانت مع البشر وأخرى مع الطير وغيرها مع الحيوان، بعضها تحقق الإحياء فيها على يد نبي مرسل كمعجزة نبي الله عيسى وأخرى على يد أفراد من عامة الناس كأصحاب البقرة، وكلها [illegible] أمر واحد ألا وهو أن الله قادر على كل شيء وعلى إحياء الموتى [illegible] وقعية [illegible] وكلها بأم أعينهم، وبلا

سبب كذلك بل إن الأمر كما قضى ربنا معقباً على كثير من الأدلة والبراهين الدالة على عظيم قدرته عقب على ذلك في ختام سورة [يس] بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ..﴾[يس: ٨٢].

المبحث الرابع: اليقظة من النوم:

لم تقتصر أدلة القرآن على ذلك، بل إنها قد جاءت بدليل يلازم المرء في يومه وليلته، ولا ينفك عنه بحال من الأحوال، بل إنه بمثابة تجربة مصغرة للموت يمر بها الناس جميعاً في كل يوم وليلة، ألا وهي النوم، فإن النوم أخو الموت، وهو الموت الأصغر ومقابله يُعد فيه الاستيقاظ حياة مصغرة، وهو يشبه الموت من وجوه كثيرة منها:

-أن فيه انقطاع عن الإحساس بالحياة، تتوقف فيه الكثير من حواس النائم وجوارحه عن الإحساس والحركة فتتوقف فيه العين عن النظر والأذن عن السمع والجسد كله عن الحركة والحق سبحانه يصف ذلك بقوله {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً}[النبأ:٩].

- أن حقيقة النوم لم تكتشف البشرية كنهه أو طبيعته أو كيفية حدوثه سوى أن النائم قبل النوم يظل منتبهاً فإذا ما دخل في سبات النوم انقطع إحساسه تماماً، فإذا ما انتبه من نومه لا يدري ما حدث له أثناء نومه إلا أنه قد استرد نشاطه وعافيته فهي في هذا الجانب كالموت سواء بسواء.

ولقد ربط بينهما الحق سبحانه ربطاً وثيقاً حيث يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الزمر: ٤٢].

ومعنى وفاتها في منامها أنه يتوفاها في منامها - وإن لم تمت بعد - ولكنها في النوم متوفاة إلى حين. فالتي - ن أجلها يمسكها فلا تستيقظ. والتي لم يحن أجلها بعد يرسلها فتصحو. إلى أن يحل أجلها المسمى. فالأنفس في قبضته دائماً في صحوها ونومها.

قال ابن كثير: ذكر الله في الآية الوفاتين الصغرى ثم الكبرى، في هذه الآية ذكر حكم الكبرى ثم الصغرى [1].

١[٦٨] تفسير ابن كثير جـ ٢/١٣٨، جـ٤/٥٥.

ويقرب ﷺ هذه الحقيقة بقوله ﷺ: (مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه ويرده إليه، فإن أذن الله في قبض روحه قبضه وإلا رد إليه، فذلك قوله {وهو الذي يتوافاكم بالليل}).[1].

وإذا كان النوم واليقظة على بساطتهما يتمّان بقضاء الله وقدره، فما كان أعظم وأكبر منهما مثل البعث والمعاد أولى بذلك، قال ﷻ: {وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار [2] ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون، وهو القاهر فــوق عباده ويرسل عليكم حفظة، حتى إذا جاء أحدكم الموت تَوَفّته رسلنا وهم لا يفرطون، ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين}.(الأنعام ٦٠- ٦٢).

ذكر الطبري: أن هذا الآيات، وإن كانت خبرا من الله تعالى عن قدرته وعلمه، فإنّ فيها احتجاجا على المشركين به الذين كانوا ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم، وبعثهم بعد فنائهم.[3].

فدل ذلك على إمكان البعث والحشر، لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أن مَن قَدَرَ على أحدهما فهــو قادر على الأخرى، فناسب تذييل الآية بقوله: {إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} (الزمر ٤٢). أي: في معرفة حقيقة ما بين الموت والحياة واليقظة والنوم من المناسبة، فإذا جهلنا حقيقة النوم وكيفية حصوله رغم بساطته ورغم تعاقبه والتصاقه بحالنا، فمن باب أولى ألا ندرك سر الإحياء وحقيقته، فكم في الكون أشياء لا يدرك العبد- على بساطتها- حقائقها لما أودع الله فيها من الأسرار والكَوامِن ما يقف الإنسان عندها مستسلما مستضعفا نفسه مستصغرا تفكيره مؤمنا موقنا، مع ما في ذلك من منافاة الإيمان بالغيب ٤.

ولقد ربط رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين النوم والموت ففي دعاء النوم واليقظة نرى هذا الدعاء من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم:(إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِه فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ

١[٧٠] ذكره ابن كثير عن ابن مردوية عن ابن عباس رضي الله عنهما حـ٦/١٣٨، وانظر فتح القدير للشوكاني حـ٢/١٣٥.

٢[٧١] أي: ما عملتم وكسبتم من الأعمال سواء باليد أو بالرجل أو بالفم جامع البيان للطبري حـ ٧/٢١٤.

٣[٧٢] [illegible]

٤[٧٣] قد حاول علم الحديث معرفة سر النوم فلم يصل إلا إلى ضرب من التخمينات والتحليلات ولم يصلوا إلى حقيقة قاطعة

إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ)(١).

وفي رواية أخرى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عَنهم أيضاً أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:

(إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ عَنْ فِرَاشِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ إِزَارِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ بَعْدُ. فَإِذَا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ(٢).

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا، وَإِذَا قَامَ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ(٣)*

فمن خلال عرض هذه الأحاديث رأينا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد ربط بين النوم والموت، بل لقد وصف النوم بالموت وربط بينهما وبين البعث ﴿أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور﴾ أى كما استطاعت قدرة الله تعالى على أن تحيي العباد بعد النوم، فإنه قادر كذلك على بعثهم وردهم إلى الحياة مرة أخرى.

ولقد ذكر القرآن في النوم تجربة واقعية حدثت يوماً على وجه الأرض لجماعة من البشر ناموا وظلوا نياماً مئات من السنين، هم أصحاب الكهف حيث بينت الآيات بأن الحق سبحانه قد ضرب على آذانهم في الكهف سنين عدداً حيث يقول سبحانه: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾[الكهف: ١٢].

ويظل أصحاب الكهف نياماً لما يزيد عن ثلاثمائة من السنين، وبعد أن استيقظوا ربطت آيات القرآن بين يقظتهم والبعث بعد الموت حيث يقول سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾[الكهف: ٢١].

---

(١) البخاري. كتاب الدعوات. حديث رقم ٥٨٤٥.

(٢) سنن الترمذي. كتاب الدعوات. حديث رقم ٣٣٢٣.

(٣)البخاري. كتاب الدعوات. حديث رقم ٥٨٣٧.

ففي هذا الحدث أوضح دليل على أن الله قادر على أن يبعث العباد مرة أخرى.

إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية هي دلالتها على البعث بمثل واقعي قريب محسوس. يقرب إلى الناس قضية البعث. وتجلت في هذا الحدث آيات الله الباهرة وقدرته العظيمة من أكثر من جانب منها:

-أن أصحاب الكهف كانوا أحياءً وفي الوقت ذاته أغناهم الحق سبحانه عما لا بد منه لكل كائن حي كي يظل على قيد الحياة ألا وهو الطعام والشراب فلقد ظلوا أحياءً وإن كانوا نياماً أكثر من ثلاثة قرون من الزمان ما أكلوا فيها فيها لقمة خبز أو شربوا جرعة ماء ومع ذلك ظلوا أحياءً وهذا مخالف للسنن الطبيعية للحياة على هذه الأرض فمن البديهي أن كل كائن حي يحتاج إلى زاد من الطعام والشراب كي يظل حياً، ويستوى في ذلك الإنسان والحيوان والطير والحشرات والنبات ولو مُنع عنه الطعام والشراب ما تمكن من الحياة إلا أياماً معدودات فكانت من معجزات أصحاب الكهف استغناؤهم عن الطعام والشراب هذه القرون الطويلة. وكانت آية الله في بعث هؤلاء من نومهم كآية الله وقدرته في بعث الموتى من قبورهم بل هي أعظم لأن الميت تنقطع به كل أسباب الحياة ويعاد خلقه مرة أخرى أما هؤلاء فلقد كانوا في كهفهم أحياء في حالة سبات تخالف السنن والنواميس التي لا تتم الحياة إلا بها كما وضحنا وبينا.

-أنهم طوال هذه الفترة ظلت أجسامهم على نضارتها وعلى حيويتها ما أثرت في أجسادهم عوامل الزمن تلك التي تؤثر في كل كائن حي بوجه عام، وفي الإنسان على وجه الخصوص والتي قال عنها الحق سبحانه {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبه، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير}.(الروم ٥٤) فما مروا بهذه الأطوار وهم نيام،بل إن شعورهم وأظافرهم قد توقفت تماماً عن النمو فما طالت شعورهم أو تمددت أظافرهم مع مرور الأيام والسنين بدليل أنهم حينما انتبهوا من نومهم لم يلفت انتباههم أي مظهر غير طبيعي في هيئتهم بل إن ثيابهم ما بليت أو اتسخت وهي على أجسادهم طوال هذه السنين الطوال فظنوا بأنهم ما لبثوا إلا يوماً أو بعض يوم أليست هذه بعض آيات الله التي أشار إليها في قوله {ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ.. (١٧)}الكهف.

- لقد خالف أصحاب الكهف بنومهم السنن الطبيعية في البشر للنوم فإن الإنسان في حالته الطبيعية لا يستطيع النوم أكثر من ساعات معدودة، وإنما هؤلاء الفتية

ظلوا نياماً مئات من السنين وتعبير الآيات عن حالتهم يبين بأن أمرهم كله كان بيد الله وحده وبحوله وقوته حتى إن آيات السورة توضح فعل الله المباشر مع أهل الكهف منذ اللحظة التي آووا فيها إلى الكهف وإلى أن تم العثور عليهم {فضربنا على آذانهم في الكهف... ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال.... بعثناهم ليتساءلوا بينهم..... أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها} فكل هذا يبين بأن الحق سبحانه قد جعل أمر أصحاب بعض آياته الدالة على قدرته والتي تتحكم يد القدرة الإلهية في أمرهم كله فهم ينامون بقدرة الحق سبحانه وتمر السنون وعين الله تكلؤهم وتحفظهم وترعاهم وتحميهم وظلوا نياماً إلى تلك الساعة التي أراد الحق لهم فيها أن ينتبهوا من نومهم وينبعثوا من رقدتهم ليكونوا في كل مراحل هذه المرحلة برهاناً ودليلاً على قدرة الخالق سبحانه على كل شيء وليكون كذلك تجربة حية واقعية على قدرة الله على البعث وعلى إحياء الخلق بعد أن تحولت أجسادهم وأبدانهم إلى رفات بالية وعظام نخرة

المبحث الخامس: الاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيهما

فيما ذكرناه من الأدلة والبراهين بيان واضح على قدرة الحق سبحانه على البعث ولو ترك الإنسان كبره وغروره لهدته الفطرة التي خلقه الله عليها إلى ذلك ولكن لكي لا تبقى لواحد من الناس حجة فإن آيات القرآن قد جاءت من الأدلة بالكثير منها ما ذكرناه ومنها وما نحن بصدده الآن ألا وهو (الاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيهما) وبيان ذلك في النقاط التالية:

- وجود السموات والأرض دليل وبرهان على وحدانية الخالق سبحانه وعظيم قدرته وقوته وهو أمر مسلم به من البشرية جمعاء مؤمنها وكافرها على حد سواء وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّا يُؤْفَكُونَ (٦١)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦)

- إفحام الخصوم والمعاندين والمخاصمين والمجادلين وتحديهم من خلال بيان قدرة الله على الخلق وعجز آلهتهم التي يعبدونها عجزاً تاماً عن فعل شيء أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا

أنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)

-أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)}غافر.

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣)

- أن الحق سبحانه لم يعجزه خلق السموات والأرض وهو قادر على أن يخلق مثلها مرة أخرى أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣[الأحقاف]

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (٩٩)[الإسراء].

-أن لهذا الخلق حكمة وهدف وغاية تم الخلق من أجلها وما تم شيء من ذلك عبثاً أو لهواً أو لعباً: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ(١٦)لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧)}[الأنبياء].

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ (٢٧)}[ص].

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)}.

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩)}[الدخان].

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)}[آل عمران].

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)} [الأنعام].

- أن معظم المواضع التي تم الحديث فيها عن خلق السموات والأرض قد ارتبط بالبعث بصورة مباشرة أو غير مباشرة فإما أن يأتي الحديث رداً على شبهات المشركين ودحضاً لافتراءاقم في قدرة الله عموماً وفي قدرته على البعث بوجه خاص، أو بياناً لحكمة الله سبحانه في خلق الوجود بأسره.

فإذا كان الأمر هكذا وكان الحق سبحانه هو الخالق بلا منازع ولا مجادل وبإقرار واعتراف من البشرية جمعاء، وتم هذا الخلق بلا تعب ولا نصب، وامتنع على الله سبحانه أن يكون هذا الخلق عبثاً فكل هذه مقدمات تؤكد بحتمية البعث واليوم الآخر، وقدرة الحق سبحانه وتعالى على ذلك.

المبحث السادس: الاستدلال بإخراج الشيء من ضده.

قال الحق سبحانه: {الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا، فإذا أنتم منه توقدون...} [يس ٨٠]إن هذه الآية قد جاءت رداً على ادعاءات المشركين وقولهم من يحيي العظام وهي رميم فجاءت لهم الآية بدليل لا يستطيعون إنكاره أو جحوده وتكذيبه فهم يرونه بأعينهم وله ارتباط وثيق بحياقم ألا وهو إخراج النار من الشجر الأخضر، فمن بدائع خلق الله انقداح النار من الشجر المعروف بالمرخ والشجر المعروف بالعفار فإذا قطع منهما مثل سواكين، فإذا احتكا انقدحت منهما نارٌ- بإذن الله- وهما يقطران ماءً ثم يصير هو وقود النار وهي زنادة العرب.

فإحياء العظام البالية ليس بأعجب من إخراج النار مما يضاده من الشجر الأخضر الذي يحمل الماء، ومن إخراج النبات من الأرض الهامدة، فمن قدر على جمع الضدين مع استحالة جمعهما، قادر على إعادة الحياة ثانية في اللحوم المتمزقة والعظام البالية {أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم} (يسين ٨١).١.

أهم النتائج والتوصيات :

١[٧٤] جامع البيان للطبري جـ ٢٣/٢٢، أحكام القرآن للقرطبي جـ١٥/٥٩، فتاوى ابن تيمية جـ٣/٢٠٠، تفسير ابن كثير جـ٣/٥٨٢، تفسير فتح القدير للشوكاني جـ٤/٣٨٣، تفسير روح المعاني للألوسي جـ٨/٥٥، في ظلال القرآن لسيد قطب جـ٥/٢٩٧٧.

من خلال هذا البحث نخلص إلى الكثير من النتائج والتوصيات منها :

١- الإيمان بالبعث واليوم الآخر أحد أركان الإيمان التي لا يكتمل إيمان المرء ولا يقبل إلا إذا أيقن وصدق بأحقيته وحتميته .

-يحترم الإسلام العقل البشري ، ويحثه على التأمل والنظر والتدبر والتفكر في ملكوت السماوات والأرض ، مما يمكن للعقل البشري البحث فيه ، أما ما لا يمكن لهذا العقل البحث والنظر فيه فمن رحمة الله بعباده أن الحق -سبحانه- قد استبقى لهذا العقل قوته ، وكشف للإنسان ما هو ضروري له في دنياه وأخراه ومنها أمور كثيرة تتعلق بالبعث والحياة بعد الموت . مما لا يمكن للعقل البشري إدراكه أو التوصل معرفة حقيقته فهي خارج نطاق قدرات العقل ، وتتعدى إمكاناته في البحث والنظر ، والتأمل والتفكير .

-يعتبر الإيمان بالبعث صمام أمن وأمان في حياة البشرية يعمل على ضبط سلوكياتهم وتحسين أخلاقهم ويردعهم عن الكثير من الموبقات والكبائر وفواحش الخطايا والذنوب فلولا الإيمان بالبعث لانقلبت حياة البشرية إلى فوضى ، وتحولت المجتمعات إلى غابة والناس فيها وحوش ضارية سلوكهم سلوك وحوش الغابة وسباعها وكلاهما بل تصل إلى درجة أحط منها لأن هذه الوحوش لها نظام تسير عليه أما البشر فلا يقفون عند حد في طغيانهم وانفلاتهم وصدق الحق -سبحانه-{أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}[الفرقان:٤٤].

-لقد جعل الحق -سبحانه- كل ما يحيط بالإنسان وما يرتبط به دليلاً وبرهاناً على قضية البعث والحشر بعد الموت ، تنوعت فيه الأدلة وتعددت فيه الآيات ، وتناسب جميع المستويات ويمكن للإنسان إدراكه والوصول إليه ببساطة وسهولة ويسر ، ففي خلق الإنسان وفي خلق السماوات والأرض ، وفي تتابع دورة الليل والنهار وفي نوم المرء ويقظته كل هذه أدلة وبراهين يسوقها الحق -سبحانه- لعباده ليذكرهم ويحذرهم ولكي لا تبقي لهم بعد ذلك حجة عند ربهم -سبحانه- وصدق الله حيث يقول :{ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لأَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً}[النساء:١٦٥]

الفهارس

